" انْعِكَاسُ المعْنَى عَلَى المبْنَى فِي نُونِيَّة الرُّندِيِّ "

د. محمد علي الهروط

الأردن – الجامعة الألمانية الأردنية

ورد البحث في ٢/ ٥/ ١٤٣٨هـ وقُبل للنشر في ٢٦/ ٨/ ١٤٣٨هـ

"انْعِكَاسُ المعْنَى عَلَى المبْنَى فِي نُونِيَّة الرُّندِيِّ"

د. محمد علي الهروط

مُلَخّص:

تَغَيَّتْ تَضَاعِيفُ البَحْثِ تَجْلِيَةَ العَلاَقَةِ بَيْنَ الـمَعْنَى وَالـمَبْنَى فِي نُونِيَّةِ أَبِي البَقَاءِ الرُّندِيِّ، إِذْ بيَّنَ البَحْثُ - عَبْرَ الشَّوَاهِدِ - أنَّ ظِلاَلَ الـمَعْنَى (الثُّنَائِيَّة الضِّدِّيَّة: التَّحَوُّل السَّلْبِيّ مِن الاسْتِقْرَارِ وَالاسْتِقْلاَلِ إِلَى الدَّمَارِ وَالاحْتِلاَلِ الَّذِي انْتَابَ الأَنْدَلُسَ)، انْعَكَسَ عَلَى لُغَةِ القَصِيدةِ وَبِنَائِهَا، وَتَوجِيهِ مُسْتَوَيَاتِهَا: الدَّلاَلِيَّة وَالنَّحْوِيَّة وَالبَلاَغِيَّة وَالعَرُوضِيَّة.

وَخَلَصَ البَحْثُ إِلَى أنَّ لُغَةَ القَصِيدةِ (المبْنَى) اسْتَجَابَتْ لِضَغْطِ المعْنَى، فَجَاءَتْ أَدَاةً طَيِّعَةً، وَمُتَسَاوِقَةً مَعَ مَقْصِدِيَّةِ الشَّاعِرِ الثَّائِرِ عَلَى الاحْتِلاَلِ الجَائِرِ، وَقَدْ ظَهَرَتْ اسْتِجَابَةُ المبْنَى عَبْرَ اسْتِعْمَالِ الشَّاعِرِ كُلَّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أنْ يَدُلَّ عَلَى التَّحَوُّلِ وَالتَّقَلُّبِ وَالانْزِيَاحِ وَالتَّضَادّ (مِنَ الأَصْلِ إِلَى الفَرْع/ المأْلُوف إلى غَيرِ المأْلُوفِ/ المتَوَقَّع إلى غَيرِ المتَوَقَّعِ/ الحَقِيقَة إلى المجَاز...)، سَوَاءٌ أَكَانَ المسْتَعْمَلُ لَفْظاً، أَمْ جُملَةً، أَمْ أُسْلُوباً.

الكَلِمَاتُ المِفْتَاحِيَّةُ: انْعِكَاس المَعْنَى عَلَى المبْنَى، نُونِيَّة الرُّنْدِيّ.

Abstract:

The research aims at clarification the relationship between the thematic purport and structure in (Nuniyyat Al-Rndy). The research has clarified through examplifying that the thematic purport (negative transformation from independence into occupation) which is reflected on the language, the structure of the poem and influencing its semantical and syntactic and rhetorical and metrical levels.

The research concluded that the language of the poem responded to the pressure of the thematic purport the aspects of this response can be seen by the use of everything which is related to this transformation and antynoms (from the original to the branches), either being used as word or sentense or style.

Keywords: The relationship between the thematic purport the structure, Nuniyyat Al-Rundy.

لِكُــلِّ شَــيْءٍ إِذَا مَــا تَــمَّ نُقْصَــانُ ... فَــلاَ يُغَــرُّ بِطِيــبِ العَــيشِ إِنْسَــانُ
هِــيَ الأُمُــورُ كَمَــا شَــاهَدْتَهَا دُوَلٌ ... مَــنْ سَــرَّهُ زَمَــنٌ سَــاءَتْهُ أَزْمَــانُ
وَهَــذِهِ الــدَّارُ لاَ تُبْقِــي عَلَــى أَحَــدٍ ... وَلاَ يَــدُومُ عَلَــى حَــالٍ لَهَــا شَــانُ
يُمَــزِّقُ الــدَّهْرُ حَتْمَــاً كُــلَّ سَــابِغَةٍ ... إِذَا نَبَــتْ مَشْــرَفِيَّاتٌ وَخُرْصَــانُ
وَيَنْتَضِــي كُــلَّ سَــيفٍ لِلْفَنَــاءِ وَلَــوْ ... كَــانَ ابْــنَ ذِي يَــزَنٍ وَالغِمْــدُ غُمْــدَانُ
أَيْنَ الــمُلُوكُ دَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَــنٍ؟ ... وَأَيْــنَ مِــنْهُمْ أَكَالِيــلٌ وَتِيجَــانُ؟
وَأَيْــنَ مَــا شَــادَهُ شَــدَّادُ فِــي إِرَمٍ؟ ... وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الفُرْسِ سَاسَانُ؟
وَأَيْنَ مَــا حَــازَهُ قَــارُونُ مِــنْ ذَهَــبٍ؟ ... وَأَيْــنَ عَــادٌ وَشَــدَّادٌ وَقَحْطَــانُ؟
أَتَــى عَلَــى الكُــلِّ أَمْــرٌ لاَ مَــرَدَّ لَــهُ ... حَتَّــى قَضَــوا فَكَــأَنَّ القَــوْمَ مَــا كَــانُوا
وَصَارَ مَا كَانَ مِــنْ مُلْــكٍ وَمِــنْ مَلِــكٍ ... كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطَّيــفِ وَسْــنَانُ
دَارَ الزَّمَــانُ عَلَــى دَارَا وَقَاتَلَــهُ ... وَأَمَّ كِسْــرَى فَمَــا آوَاهُ إِيْــوَانُ
كَأَنَّمَا الصَّعْبُ لَمْ يَسْهُلْ لَهُ سَبَبُ ... يَوْمَــاً وَلاَ مَلَــكَ الــدُّنْيَا سُــلَيمَانُ
فَجَــائِعُ الــدَّهْرِ أَنْــوَاعٌ مُنَوَّعَــةٌ ... وَلِلزَّمَــانِ مَسَــرَّاتٌ وَأَحْــزَانُ
وَلِلْحَــوَادِثِ سُــلْوَانٌ يُسَــهِّلُهَا ... وَمَــا لِمَــا حَــلَّ بِالإِسْــلاَمِ سُــلْوَانُ
دَهَــى الجَزِيــرَةَ أَمْــرٌ لاَ عَــزَاءَ لَــهُ ... هَــوَى لَــهُ أُحُــدٌ وَانْهَــدَّ ثَهْلَــانُ
أَصَابَهَا العَينُ فِي الإِسْلاَمِ فَامْتُحِنَتْ ... حَتَّــى خَلَــتْ مِنْــهُ أَقْطَــارٌ وَبُلْــدَانُ
فَاسْــأَلْ بَلَنْسِــيَةً مَــا شَــأَنُ مُرْسِــيَةٍ؟ ... وَأَيْــنَ شَــاطِبَةٌ أَمْ أَيْــنَ جَيَّــانُ؟
وَأَيْــنَ قُرْطُبَــةٌ دَارُ العُلُــومِ؟ فَكَــمْ ... مِــنْ عَالِــمٍ قَــدْ سَمَا فِيهَــا لَــهُ شَــانِ
وَأَيْنَ حِمْصُ وَمَــا تَحْوِيــهِ مِــنْ نُــزَهٍ؟ ... وَنَهْرُهَــا العَــذْبُ فَيَّــاضٌ وَمَلْــآنُ
قَوَاعِــدٌ كُــنَّ أَرْكَــانَ الــبِلاَدِ فَمَــا ... عَسَــى البَقَــاءُ إِذَا لَــمْ تَبْــقَ أَرْكَــانُ
تَبْكِــي الحَنِيفِيَّــةُ البَيْضَــاءُ مِــنْ أَسَــفٍ ... كَمَــا بَكَــى لِفِــرَاقِ الإِلْــفِ هَيمَــانُ
عَلَــى دِيَــارٍ مِــنَ الإِسْــلاَمِ خَالِيَــةٍ ... قَــدْ أَقْفَــرَتْ وَلَهَــا بِــالكُفْرِ عُمْــرَانُ

حَيْثُ الـمسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَـائِسَ مَـا ... فِـــيهِنَّ إِلاَّ نَـــوَاقِيسٌ وَصُـــلْبَانُ
حَتَّى الـمحَارِيبُ تَبْكِي وَهْيَ جَامِـدَةٌ ... حَتَّـى الـــمَنَابِرُ تَرْثِـي وَهْـيَ عِيـدَانُ
يَا غَافِلاً - وَلَهُ فِـي الـدَّهْرِ مَوْعِظَـةٌ - ... إِنْ كُنْـتَ فِـي سِـنَةٍ فَالـدَّهْرُ يَقْظَـانُ
وَمَاشِـــيَاً مَرِحَـــاً يُلْهِيـــهِ مَوْطِنُـــهُ ... أَبَعْـدَ حِمْـصٍ تَغُـرُّ الـمرْءَ أَوْطَـانُ؟
تِلْـكَ الـمصِيبَةُ أَنْسَـتْ مَـا تَقَـدَّمَهَا ... وَمَـا لَهَـا مَـعَ طُـولِ الـدَّهْرِ نِسْـيَانُ
يَـا رَاكِـبِينَ عِتَـاقَ الخَيْـلِ ضَـامِرَةً ... كَأَنَّهَـا فِـي مَجَـالِ السَّـبْقِ عِقْبَـانُ
وَحَـامِلِينَ سُـيُوفَ الهِنْـدِ مُرْهَفَـةً ... كَأَنَّهَـا فِـي ظَـلاَمِ النَّقْـعِ نِـيرَانُ
وَرَاتِعِـينَ وَرَاءَ البَحْـرِ فِـي دَعَـةٍ ... لَهُـمْ بِأَوْطَـانِهِمْ عِـزٌّ وَسُـلْطَانُ
أَعِنْـدَكُمْ نَبَـأٌ مِـنْ أَهْـلِ أَنْـدَلُسٍ؟ ... فَقَـدْ سَـرَى بِحَـدِيثِ القَـوْمِ رُكْبَـانُ
كَمْ يَسْتَغِيثُ بِنَا الـمسْتَضْعَفُونَ وَهُـمْ ... أَسْـرَى وَقَتْلَـى فَمَـا يَهْتَـزُّ إِنْسَـانُ
مَـادَا التَّقَـاطُعُ فِـي الإِسْـلاَمِ بَيْـنَكُمُ ... وَأَنْـتُمُ - يَـا عِبَـادَ اللهِ - إِخْـوَانُ؟
أَلاَ نُفُـوسٌ أَبِيَّـاتٌ لَهَـا هِمَـمٌ ... أَمَـا عَلَـى الخَـيرِ أَعْـوَانٌ وَأَنْصَـارُ
يَـا مَـنْ لِذِلَّـةِ قَـوْمٍ بَعْـدَ عِـزِّهُمُ ... أَحَـالَ حَـالَهُمُ كُفْـرٌ وَطُغْيَـانُ
بِـالأَمْسِ كَـانُوا مُلُوكَـاً فِـي مَنَـازِلِهِمْ ... وَاليَوْمَ هُـمْ فِـي بِـلاَدِ الكُفْـرِ عُبْـدَانُ
فَلَـوْ تَـرَاهُمْ حَيَـارَى لاَ دَلِيـلَ لَهُـمْ ... عَلَـيهِمُ مِـنْ ثِيَـابِ الـذُّلِّ أَلْـوَانُ
وَلَـوْ رَأَيْـتَ بُكَـاهُمْ عِنْـدَ بَـيْعِهِمُ ... لَهَالَـكَ الأَمْـرُ وَاسْـتَهْوَتْكَ أَحْـزَانُ
يَـا رُبَّ أُمٍّ وَطِفْـلٍ حِيـلَ بَيْنَهُمَـا ... كَمَـــا تَفَـــرَّقَ أَرْوَاحٌ وَأَبْـــدَانُ
وَطِفْلَةٍ مِثْلِ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَـتْ ... كَأَنَّمَـــا هِـــيَ يَـــاقُوتٌ ومَرْجَـــانُ
يَقُودُهَـا العِلْـجُ لِلْمَكْـرُوهِ مُكْرَهَـةً ... وَالعَـينُ بَاكِيَـةٌ وَالقَلْـبُ حَيْـرَانُ
لِمِثْلِ هَـذَا يَـذُوبُ القَلْـبُ مِـنْ كَمَـدٍ ... إِنْ كَانَ فِي الـقَـلْبِ إِسْلاَمٌ وَإِيمَـانُ[1]

مُقدِّمةٌ:

جَاءَت قَصيدَةُ الرُّثْديّ رَدَّةَ فِعلٍ طبيعِيَّةٍ على مَا اجْتَرَحتْه أَيْدِي الفِرَنْجَةِ بالأنْدَلُسِ، الَّذِي أَهْلَكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ، إِذْ وَقَبَ شَفَقُ الأندلُسِ، وَخَوَى نَجْمُهَا، فَتَمَلَّكَتْ هَذِهِ الصُّوَرُ مَجَامِيعَ أَحَاسِيسِ الشَّاعِرِ، وَتَلَبَّسَتْ بِمَشَاعِرِهِ، وَتَمَسَّكَتْ بِتَلاَبِيبِ وجْدَانِه، فَاسْتَحْوَذَ ذلِكَ مَكَانَاً عَلِيّاً فِي بِنَاءِ القَصِيدَةِ وَارْتَدَّ صَدَاهُ جَلِيَّاً فِي مُقوِّمَاتِهَا؛ إِذْ حَاوَلَ الشَّاعِرُ إِرْقَاءَ دِمَاءِ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ الَّذِينَ صَارُوا هَدَمَاً، وأَفْصَحَ عَنِ امْتِعَاضِهِ وَتَبَرُّمِهِ مِنَ التَّحولُ الَّذي انْتَابَ بَلَدَهُ بِلُغَتِه الشِّعْرِيَّةِ؛ لِذَلِكَ جَاءَتِ القَصِيدَةُ مُحَذِّرَةً مِنَ الأخْطَارِ المُسْتَقْبَلِيَّةِ المُحْدِقَةِ إِذَا مَا انْتَكَسَ العَرَبُ أَوْ تَخَادَلُوا، وَمُجَسِّدَةً - فِي مُجْمَلِهَا - حَالَةَ الشَّاعِرِ النَّفسيَّةَ الحَزِينَةَ النَّاجمَةَ - كَما يُسَمَّى في علمِ النَّفسِ - عَنْ مُثيرٍ خَارِجِيٍّ، وَانْفِعَالاً مُتَأجِّجَاً عَلَى نَفْسٍ مُحْتَرِقَةٍ مُتَأسِّيَةٍ عَلَى الضَّيَاعِ.

وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ القَصِيدَةَ - بِحَقٍّ- رِثَاءٌ صَادِرٌ مِنَ القَلْبِ[٢]، يَقُولُ يَاسِين الأيُّوبِي: "مِنْ جَمِيلِ المَرَاثِي الصَّادِقَةِ المؤَثِّرَةِ رِثَاءُ المدُن وَالأَوْطَان، الَّذِي يَصْدُرُ عَنْ تَجْرِبَةٍ صَادِقَةٍ مُعَمَّقَةٍ؛ لأَنَّهَا تَتَجَاوَزُ مِحْنَةَ الشَّاعِرِ الخَاصَّةِ إِلَى حَدَثٍ كَبِيرٍ يَشْمَلُ الزَّمَانَ وَالمكَانَ المَنْظُورَين فِي السَّمْعِ وَالبَصِيرَةِ"[٣].

ولأنَّ القَصيدَةَ تُعَدُّ مِن غُرَر قَصَائدِ "رِثَاءِ المُدُن والمَمَالِك"؛ فَقَدْ طَافَتْ فِي الآفَاقِ وَسَارَ بِهَا الرِّفَاقُ، وَتَقَلْقَلَتْ فِي البِلاَدِ، وَتَلَقَّفَهَا النَّاسُ حَتَّى شَاعَتْ مَبَانِيهَا، وَذَاعَتْ مَعَانِيهَا، وَقَدْ مَثَّلَتْ لَوْحَةً فَنِّيَّةً شَاكِيَةً بَاكِيَةً، وَمَقْطُوعَةً تراجِيدِيَّةً مُخْزِيَةً جَادَتْ بِهَا قَرِيحَةُ الشَّاعِرِ، الَّذِي أَجْبَرَنَا عَلَى التَّرْحَالِ مَعَهُ فِي أَجْوَائِهَا، الَّتِي وَصَفَتْ بِشَكْلٍ دَقِيقٍ رَقِيقٍ مَا حَلَّ بالأنْدَلُس، وَبَيَّنَتْ حَالَ الأُمُورِ الَّتِي تَؤُولُ حَالُهَا إِلَى الضِّدِّ، وَصَوَّرَتْ حَالَ المسْلِمِينَ وَقْتَذَاكَ وَهُمْ فِي أَمْرٍ لاَ يُنَادَى وَلِيدُهُ.

لَمْ تَتَوَقَّفِ المرْثِيَةُ عِنْدَ العَالَمِ الإِسْلاَمِيِّ وَالعَرَبِيِّ، بَلْ تَأَثَّرَ بِهَا الشَّاعِرُ

الإِسْبَانِيُّ خورخي منريكي Jorge Manrique (١٤٤٠-١٤٧٩)، عِنْدَمَا رَثَى وَالِـدَهُ بِقَصِيدَةٍ تَتَشَابَهُ كَثِيرَاً مَعَ عَدَدٍ فِقْرَاتِ قَصِيدَةِ الرُّنْدِيِّ وَمَضَامِينِهَا وَأَفْكَارِهَا(٤).

وَمِنْ شِدَّةِ اهْتِمَام النَّاسِ آنْذَاكَ بالقَصيدةِ، لَمْ تَخْلُ مِنَ التَّصَرُّفِ بِهَا، وَلَمْ تَسْلَمْ مِنَ العَبَثِ، إِذِ امْتَدَّتْ أَلْسِنَةُ النَّاسِ إِلَيهَا، فَأَضَافُوا إِلَيهَا أَبْيَاتَاً لَمْ يَفُهْ بِهَا الشَّاعِرُ؛ لِفَرْطِ إِعْجَابِهِمْ بِهَا، إِذْ يَقُولُ الـمقَّرِيّ بِشَأنِ هَذِهِ الزِّيَادَاتِ: "وَغَالِبُ ظَنِّي أَنَّ تِلْكَ الزِّيَـادَاتِ لَمَّا أُخِذَتْ غِرْنَاطَةُ وَجَمِيعُ بِلاَدِ الـمسْلِمِينَ - إِذْ كَانَ أَهْلُهَا يَسْتَنْهِضُونَ هِمَمَ الـملُوكِ بِالـمشْرِقِ وَالـمغْرِبِ - فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ لَمَّا أَعْجَبَتْهُ قَصِيدَةُ صَالِحِ بْن شَرِيف، زَادَ فِيمَا تِلْكَ الزِّيَادَاتِ"(٥).

لَوْ تَتَبَّعْنَا أَبْيَاتَ القَصِيدَةِ، لَأَلْفَيْنَا أَنَّ صَدْرَ الرُّنْدِيِّ قَدْ حَصِرَ مِمَّا حَـدَثَ لِبَلَـدِهِ، وَأَنَّ الهَمَّ النَّاجِمَ عَنِ التَّحَوُّلِ السَّلْبِيِّ فِي الأَنْدَلُسِ لَمْ يَبْرَحْ أَفْكَارَ القَصِـيدَةِ، أَوْ يُغَـادِرْ تَضَاعِيفَهَا، إِذِ اسْتَهَلَّ الشَّاعِرُ قَصِيدَتَهُ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الحِكَمِ الوَاعِظَةِ الـمسْتَلْهَمَةِ عَـنْ تَجْرِبَةٍ حَقِيقِيَّةٍ (سُقُوط الأَنْدَلُس وَتَبَدُّل حَالِهَا)؛ لِيَدُلَّ بِهَا الشَّـاعِرُ عَلَـى أَنَّ الأُمُـورَ لاَ تَبْقَى عَلَى حَالِهَا، بَلْ تَتَحَوَّلُ وَتَتَغَيَّرُ، فَالتَّمَامُ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ نَقْصٍ يَتَخَلَّلُـهُ، وَالسُّـرُورُ لاَ بُدَّ مِنْ حُزْنٍ يُخَالِطُهُ.

بَعْدَ ذَلِكَ اسْتَحْضَرَ الشَّاعِرُ مَثَلاً عَلَى ذَلِكَ مِـنَ الـمـلُوكِ وَالقَـادَةِ الَّـذِينَ عَـلاَ شَأْنُهُمْ فِي التَّارِيخِ القَدِيمِ، ثُمَّ تَسَاءَلَ: أَيْنَ هُمْ؟ وَأَيْنَ أَمْلاَكُهُمْ وَتِيجَـانُهُمْ وَأَمْـوَالُهُمْ؟ لَقَدْ صَارُوا أَثَرَاً بَعْدَ عَين، وَكَأَنَّهُ يُكَرِّرُ قَوْلَ أَبِي العَلاَءِ الـمعَرّيّ(٦):

صَاحِ هَذِي قُبُورُنَـا تَمْلَـأُ الرَّحْـــــ بَ فَـأَيْنَ القُبُـورُ مِـنْ عَهْـدِ عَـادِ

ثُمَّ يَنْتَقِلُ الشَّاعِرُ - عَلَى نَحْوٍ سَرِيعٍ - إِلَى ذِكْرِ حَالِ الأَنْدَلُسِ الـمتَقَلِّبِ بَعْـدَ الاحْتِلاَل، ذَلِكَ أَنَّهُ اسْـتَدْعَى صُـورَةَ الـمدُنِ الأَنْدَلُسِـيَّةِ الـمشْهُورَةِ اللَـوَاتِي صِـرْنَ رُسُومَاً دَوَارِسَ بَعْدَ أَنْ كُنَّ قَوَاعِدَ البِلاَدِ، وَبَيَّنَ حَالَ الـمسَاجِدِ اللَـوَاتِي تَحَـوَّلْنَ إِلَـى كَنَائِسَ، وَمَحَارِيبِهِنَّ وَمَنَابِرِهِنَّ اللَوَاتِي يَبْكِينَ وَيَرْثِينَ حَالَهُنَّ، وَيَشْكِينَ خُلُوَّهُنَّ مِنَ الـمصَلِّينَ.

وَفِي نِـهَايَةِ القَصِيدَةِ يُبْرِزُ الشَّاعِرُ التَّحَوُّلَ الَّذِي انْتَابَ سُلُوكَ الـمسْلِمِينَ، فَبَعْـدَ أَنْ كَانُوا كَالجَسَدِ الوَاحِدِ، انْفَضُّوا عَنْ بَعْضِهِمْ طَرَائِقَ قِدَدًا، وتَقَطَّعَ أَمْرُهُـمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا، وَإِذْ يَتَحَدَّثُ الشَّاعِرُ عَنْهُمْ، فإنه يَخُصُّ بِالذِّكْرِ أَهْلَ الـمغْرِبِ؛ لأَنَّـهُ لَـمْ تُثِـرْهُمْ حَالَـةُ إِخْوانِهِمُ الـمسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ مَا عَادُوا شَيْئًا مَذْكُورًا - بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُلُوكًـا - تَحْـتَ الاحْتِلاَل، وَلَـمْ تَسْتَفْزِزْهُمْ صُورَةُ الأُمِّ وَالطِّفْلِ اللَذَين فُتِقَـا بَعْـدَ أَنْ كَانَـا رَتْقًـا، وَلَـمْ تُحْزِنْهُمْ صُورَةُ الطِّفْلَةِ الَّتِي يَقُودُهَا العِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَـةً، فَانْسَـلَخَتْ عَـنْ حِضْـنِ وَالِدَتِهَا بَعْدَ أَنْ تَرَعْرَعَتْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ بَيْنَهُ فِي ظِلِّ أَمْنٍ وَغِبْطَةٍ.

نَـهَضَت القَصِيدَةُ بِرُمَّتِهَا عَلَى الثُّنَائِيَّةِ الضِّدِّيَّةِ (التَّحَوُّل مِـنْ الـمَاضِي الجَمِيـل الـمُحَبَّب إِلَى الحَاضِرِ القَبِيحِ الـمَكْرُوه) الَّتِي عَاشَتْهَا الْأَنْدَلُسُ، وَقِيَام القَصِـيدَةِ عَلَـى فِكْرَةِ الثُّنَائِيَّةِ تُذَكِّرُنَا بِقَصَائِدَ أُخَرَ بُنِيَتْ عَلَى الـمِنْوَالِ نَفْسِهِ، وَمِنْهَا: نُونِيَّـة أبـي الفَـتْحِ البُسْتِي، وَنُونِيَّةُ ابْنِ زَيْدُون (أَضْحَى التَّنَائِي) الَّتِي شَكَا فِيهَا بَثَّهُ وَحُزْنَهُ، وَنَشَرَ لَوَاعِجَهُ الـمُمْتَدَّةَ لِمَحْبُوبَتِهِ وَلَّادَة بِنْـت الـمُسْتَكْفِي عَبْـرَ اسْـتِعْمَالِ أُسْـلُوبِ التَّضَـادِّ: البُعْـد وَالقُرْب، اللِقَاء وَالجَفَاء...

ولأنَّ الشِّعْرَ مِنْ حَيثُ اللُغَةُ (الـمَقَال/ المبْنَى) مُلْتَصِقٌ الْتِصَاقًا شَدِيدًا بِالظُّرُوفِ الـمُحِيطَةِ بِالشَّاعِرِ وَمَقْصِدِهِ الشِّعْرِيِّ (الـمَقَام/ المعْنَى)؛ فَقَدْ أَغْرَانَـا ذَلِـكَ إلى تَلَمُّـسِ العَلاَقَةِ بَينَ المعْنَى وَالمبْنَى[٧]، وَسَبْرِ غَوْرِ مَظْهَرِ التَّأَثُّر وَالتَّأْثِيرِ بَيْنَهُمَا في القَّصِـيدَةِ الَّتِـي شَكَّلَتْ مَـحَجَّة البَحْثِ، وَمَـحَطَّةَ رَاحِلَتِهِ.

لَقِيَت القَصِيدَةُ اهْتِمَامًا مِنَ البَاحِثِينَ، إذ أُجْرِيَتْ عَلَيهَا عِدَّةُ دِرَاسَاتٍ عِلْمِيَّةٍ، إِذْ يمكِنُ إِجْمَالُ أَبْرَزِ مَا وَقَعَ عَلَيهِ البَاحِثُ بما يَلِي:

١- دِرَاسة مُحَمَّد مِفْتَاح - وَهِيَ الأَقْدَمُ - فِي كِتَابِهِ الـمعَنْوَنِ بِـ: (فِي سِيمِيَاءِ الشِّعرِ القديمِ).

٢- دِرَاسَة السَّعِيد النوتي بِعُنْوَان (قَصِيدَة أَبِي الطَّيبِ الرُّنْـدِي فِـي رِثَـاء الأَنْـدَلُس/ دِرَاسَة بَلاَغِيَّة تَحْلِيلِيَّة).

٣- دِرَاسَة عَبْد السَّمِيع موفَّق بِعُنْوان (تَفَاعُل البِنَى فِـي نُونِيَّـة أبـي البَقَـاء الرُّنْـدِيّ- مُقَارَبَة أُسْلُوبِيّة).

٤- دِرَاسَة مُحَمَّد رُضْوَان الدَّاية (أَبُو البَقَاء الرُّنْدِيّ شَاعِرُ رِثَاء الأَنْدَلُس).

٥- دِرَاسَة بُوعلام رزيق بِعُنْوَان (الخَصَائِص الأُسْلُوبِيَّة فِي نُونِيَّة أبي البَقَاء الرُّنْدِيّ).

لَكِنَّ الفَارِقَ بَينَ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ وَتِلْكَ؛ أنَّ تِلْكَ الدِّرَاسَاتِ لَمْ تُسَلِّطِ الضَّوءَ عَلَى أَثَرِ الـمَعْنَى فِي تَوجِيهِ الظَّواهِرِ الأُسْلُوبِيَّةِ وَالفَنِّيَّةِ واللُّغَوِيَّة الـمبْثُوثَةِ فِي القَصِيدَةِ، ذَلِكَ الأَثَر الَّذِي حَـاوَلَ هَـذَا البَحْـثُ اسْـتِجْلاَءَهُ، وتَفْسِـيرَهُ تَفْسِـيراً يَتَسَـاوَقُ مَـعَ مُنَاسَـبَةِ القَصِيدَة؛ لِلْوُقُوفِ عَلَى لُغَة الشَّاعِرِ الَّتِي جَاءَتْ أَدَاةً طَيِّعَةً مُعَبِّـرَةً عَمَّـا يَـدُورُ حَولَـهُ، وحِوَاءً يَلْجَأُ إِلَيهِ، وَمُتَنَفَّساً لِلْهُرُوبِ مِنَ الضَّغْطِ الَّذِي يُكَابِدُهُ، وَمُرَاغِمَ لِبَثّ حُزْنِهِ.

وَالسُّؤَالُ المطْرُوح الآنَ: كَيفَ عَبَّرَ الشَّاعِرُ عَنِ الـمَعْنَى (التَّحَوُّل مِـنَ الإِيجَـابِ إلى السَّلبِ) عَبْرَ الـمَبْنى؟ يَظْهَرُ ذَلِكَ عَبْرَ اسْتِعْمَال الشَّاعِرِ الأَبْوَابَ الدَّلاَلِيَّةَ وَالنَّحْوِيَّةَ وَالبَلاَغِيَّةَ وَالعَرُوضِيَّةَ الَّتِـي يَتَجَلَّى فِـي ظَاهِرِهَا مَعْنَى عَامٌّ (التَّحَوُّل وَالتَّقَلُّب)، وَفِـي بَاطِنِهَا (شَوَاهِدهَا مِنَ القَصِيدَةِ) مَعْنَى خَاصٌّ مُـرْتَبِطٌ بِـمَقْصِدِيَّةِ الشَّـاعِرِ مِـنَ البَيْـتِ الشِّعْرِيِّ، وَمِثَال ذَلِكَ - عَلَى سَبِيلِ المثَال لاَ الحصْرِ - جُنُـوحُ الشَّـاعِرِ إِلَـى الـجُمْلَةِ الإِنْشَائِيَّةِ الطَّلَبِيَّةِ الَّتِي تُشِيرُ فِـي ظَاهِرِهَا إِلَى مَعْنَى التَّحَوُّل؛ لأَنَّ مَعْنَاهَـا يَتَحَـوَّلُ مِـنَ الـحَقِيقَةِ إِلَى الـمَجَازِ، أَمَّا الـمَعْنَى الـخَاصُّ مِنِ اسْتِعْمَالِ هَـذِهِ الـجُمْلَةِ فَيُقْـرَأُ عَبْـرَ مَوْطِنِهَا فِـي القَصِيدَةِ.

أَمْلَتْ طَبِيعَةُ الموْضُوعِ أنْ تُقَسَّمَ عُنْوَانَاتُهُ الرَّئِيسَةُ عَلَـى أَرْبَعَـةِ أَقْسَـامٍ: الظَّـواهِرِ الدَّلاليَّةِ، وَالظَّوَاهِرِ البَلاَغِيَّةِ، وَالظَّوَاهِرِ النَّحْوِيَّةِ، وَالظَّوَاهِرِ العَرُوضِـيَّةِ، تَنْسَـرِبُ فِيهَـا العُنْوَانَاتُ الفَرْعِيَّةُ، وَإِليكَهَا فِي مَوْضِعِهَا.

١. الظَّواهِرُ الدَّلاَلِيَّةُ:

● **الأَلْفَاظُ الدَّالَّةُ عَلَى التَّحَوُّلِ:**

إنَّ المتَمَعِّنَ بِطَبِيعَةِ الأَلْفَاظِ الَّتِي انْتَقَاهَا الشَّاعِرُ مِنْ معْجَمِهِ اللُغَوِيِّ، لِيُوَظِّفَهَا في القَصيدَةِ، يَجِدُهَا -فِي مُعْظَمِهَا - تَنْتَمِي إِلَى الحَقْل الدَّلاَلِي (التَّغيُّر والتَّقلُّبِ)، بَلْ أَضَافَ الشَّاعِرُ عَلَيهَا فُيوضَاً مِنَ الدَّلاَلاَتِ الَّتِي تَحْمِلُ انْزِيَاحَاً مِنْ مَعْنَاهَا الأَصْلِيِّ كَالتَّحَسُّرِ وَالنَّدَمِ؛ لِيَرْبِطَهَا مَعَ مَا يُحِيطُ بِهِ مِنْ تَحَوُّلٍ وَتقَلُّبٍ؛ وَهَذَا مِمَّا لاَ شَكَّ فِيهِ أَضْفَى عَلَى القَصِيدَةِ جَوَّاً أَشْبَهَ مَا يَكونُ بِمَأتمٍ فِيهِ العَويلُ وَالنَّحِيبُ، وَأَثَّرَتِ الجَمَالَ الفنِّيَّ اللُغَوِيَّ لِلْقَصِيدَةِ، وَأَلْبَسَتْهَا ثَوْبَاً مِنَ التَّحَسُّرِ وَتَهْيِيجِ المَشَاعِرِ، وَوَضَعَتِ القَارِئَ فِي أَجْوَاءِ التَّحَوُّلِ الَّتِي خَيَّمَتْ عَلَى دِيَارِ الأَنْدَلُسِ.

تَنَوَّعَ أُسلُوبُ الشَّاعِرِ فِي تَوْظِيفِ هَذِهِ الظَّاهرةِ، فانْقَسمَ عَلى قِسمَينِ:

أ. الطِّباقُ (اللفظَتَان):

يُعَدُّ الطِّباقُ - بَلاَغِيَّاً - مُحَسِّنَاً بَدِيعِيَّاً، وَسَبِيلاً مِنْ سُبُلِ عَرْضِ المعَانِي - مُعْجَمِيَّاً - وَحِينَ يُسْتَعْمَلُ فِي التَّعْبِيرِ، فَإِنَّهُ يَهْدِفُ إِلَى إِقَامَةِ الضِّدِّيَّةِ بَينَ الأَلْفَاظِ وَالمعَانِي وَالصُّورِ فِي الكَلاَمِ؛ تَحْقِيقاً لِغَايَاتٍ بَلاَغِيَّةٍ وَجَمَالِيَّةٍ تَنْمِيقِيَّةٍ، إِذْ يَسْتَعِينُ بِهِ المرْءُ؛ لِغَايَاتِ جَذْبِ الانْتِبَاهِ، فَيُحَاوِلُ المُتَلَقِّي إِمْعَانَ النَّظَرِ فِي هَذَا اللَونِ، وَمَعْرِفَةَ القَصْدِ منْهُ، وَكَمَا يُقَالُ: "وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الأَشْيَاءُ".

لاَ رَيْبَ فِي أنَّ أُسْلُوبَ (الطِّبَاق) فِيهِ ضَرْبٌ مِنَ التَّحوُّل، دَلِكَ أَنَّنَا عِنْدَمَا نَسْتَعْمِلُ لَفْظَاً فِيهِ مَعْنَىً مَا، ثُمَّ نَأْتِي بِمَا يُقَابِلُهُ، حَينَئِذٍ يَكُونُ المَعْنَى العَامُّ لِلَّفظَتَينِ قَدِ اكْتَسَبَ نَوْعَاً مِنَ التَّقلُّبِ، وَمِثَالُ دَلِكَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[٨]؛ أَيْ: لَوْ رَأَيْتَهُمْ لَظَنَنْتَهُمْ أَيْقَاظَاً بِسَبَبِ تقلُّبِهِمْ وَتَفَتُّحِ عُيُونِهِمْ، وَالحَالُ أَنَّهم نِيامٌ[٩]. فَقَدْ أَسْهَمَ الطِّباقُ فِي دَفْعِ التَّوَهُّمِ (الاسْتِيقَاظِ)، فَانْقَلَبَ المعْنَى مِنْ حَالٍ إِلى حَالٍ.

أمَّا الرُّنديُّ فقَدْ اسْتَعْمَلَ هَذَا الأُسْلُوبَ كَثِيرَاً، وَلَمْ يَأْتِ بِهِ عَلَى عَوَاهِنِهِ بُغْيَةَ التَّحْسِينِ البَدِيعِيِّ، أَوْ إِضَافَةِ مَسْحُوقٍ تَجْمِيلِيٍّ، وَإِنَّما قَصَدَ مِنْهُ رِسَالَةً مُؤدَّاهَا: إنَّ الضِّدَّ لاَبدَّ وَأَنْ يَقْتَرِنَ بِضِدِّهِ، وَإنَّ الضِّدَّينِ لَيسَا بِبَعِيدَينِ فِي الـمسَافَةِ وَالـزَّمنِ، فَهُمَا مُتَجَاوِرَانِ لَفْظَاً، وَمُخْتَلِفَانِ مَعْنَىً، لَكِنَّهُمَا مَعَ بَعْضِهِمَا بَعْضَاً - فِي نِهَايَةِ الـمطَافِ - يُؤَدِّيَانِ مَعْنَى عَامَّاً.

يَنْسَجِمُ أُسْلُوبُ الطِّبَاقِ مَعَ حَالَةِ الضِّدِّيَّةِ الَّتِي اكْتَنَفَتِ الأَنْدَلُسَ، إِذْ يُفِيدُ تَوْظِيفُهُ التَّوضِيحَ الدَّقِيقَ لِمَا آلَتْ إِلَيهِ الأُمُورُ فِي الأَنْدَلُسِ، فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَرْيَةً طَيِّبَةً مُطْمَئِنَّةً، أَضْحَتْ خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا؛ بِسَبَبِ الدَّمَارِ وَالسَّلبِ، وَلَنَا أَنْ نَقُولَ: إنَّ غَالِبَ الموَاطِنِ الـمتَضَمِّنَةِ أُسْلُوبَ الطِّبَاقِ فِي القَصِيدَةِ، اسْتُلْهِمَتْ مَعَانِيهَا مِنَ الحَالَةِ الوَاقِعِيَّةِ للأَنْدَلُسِ، لِذَلِكَ سَاعَدَ الطِّبَاقُ فِي رَسْمِ صُوَرٍ وَاقِعِيَّةٍ لِحَالِ الأَنْدَلُسِ لاَ خَيَالِيَّةٍ، وَمِنْهَا:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلاَ يُغَرُّ بِطِيبِ العَيشِ إِنْسَانُ

جَاءَ الطِّبَاقُ فِي البَيتِ بَينَ (تَمَّ وَنُقْصَانُ)، فَالبَيتُ حَافِلٌ بِمَعَانِي الحِكْمَةِ، الَّتِي تَمَخَّضتْ عَنْ تَجْرِبةٍ عَاشَها الشَّاعِرُ (احْتِلاَل الأَنْدَلُسِ)، فَبَعْدَ أنْ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا، تَحَوَّلَتْ مِنْ حَال إِلَى حَال، فَأَرَادَ الشَّاعِرُ أنْ يُعَمِّمَ هَذَا الأَمْرَ عَلَى الأَشْيَاءِ بِحِكْمَةٍ فِيهَا مَعْنَى التَّحوُّلِ، فَرَبَطَ تَحوُّلَ الأَشْيَاءِ بِدَلاَلَةِ ثُنَائِيَّةِ الطِّبَاقِ (الشَّيْءِ وَضِدِّهِ)، وَهِيَ صُورَةٌ بَصَرِيَّةٌ تَعْتَمِدُ عَلَى عُنْصُرِ الـمقَابَلَةِ بَينَ مَظْهَرَينِ مُتَضَادَّينِ يَؤُولُ الأوَّلُ مِنْهُمَا إِلَى الثَّانِي، وَهَذَا يُعَدُّ مِنْ بَرَاعَةِ الاسْتِهْلاَلِ فِي القَصَائِدِ.

هِيَ الأُمُورُ ـ كَمَا شَاهَدْتَهَا ـ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

مَا زالَ الشَّاعِرُ يَسْرُدُ الحِكَمَ عَلَى تقلُّبِ حَوَادِثِ الدَّهْرِ وَحُوَلاَئِهِ، فَتَارَةً أَفْرَحَتْكَ، لَكِنَّهَا سَرْعَانَ مَا تُحْزِنُكَ أَزْمَانَاً. وَقَدْ أَضْفَى الطِّبَاقُ بَينَ (سَرَّ وَسَاءَ) نَوْعَاً

مِنَ الإِيجَازِ وَالاخْتِصَارِ مَعَ إِيصَالِ الهَدَفِ مِنْهُ، فَعَجُزُ البَيتِ أشبَهُ مَا يَكُونُ تَوقِيعَاً مِنَ التَّوقيعَاتِ أو المسْكُوكَات اللُغَوِيَّة.

يُـمَزِّقُ الـدَّهْرُ حَتْـمَاً كُـلَّ سـابِغَةٍ إِذَا نَبَـتْ مَشْـرفيَّاتٌ وَخُرصَـانُ

وَظَّفَ الشَّاعِرُ الطِّباقَ فِي هَذَا البَيـتِ بَـينَ الفِعْلَـينِ (يُمَـزِّقُ وَ نَبَـتْ)، فَالفِعْـلُ (يُمَزِّق) يَعْنِي: التَّقطِيعَ إِلَى أَجْزَاءٍ، وَالفِعْـلُ (نَبَـتْ) يَعْنِـي: عَـدَمَ القَطْـعِ وَهُـوَ صِـفَةٌ لِلسَّيفِ، وَالـمَثَلُ العَرَبِيُّ يَقُولُ: (لِكُلِّ صَارِمٍ نَبْوَةٌ).

وَقَبْلَ الشُّرُوعِ فِي تِبْيَانِ اسْتِعْمَالِ الطِّباقِ فِي هَذَا البَيتِ، لَابُدَّ مِنَ التَّعْرِيجِ عَلَـى أَلْفَاظٍ وَظَّفَهَا الشَّاعِرُ فِي البَيتِ وَلَهَا دَلَالَاتٌ مِنْ وُجْهَةِ نَظَرِي:

- يُمَزِّقُ: فِعْلٌ مُضَارِعٌ دَالٌّ عَلَى الـمسْتَقْبَلِ، وَقَدْ أَسْنَدَهُ الشَّاعِرُ إِلَى فَاعِلِهِ غَيرِ الحَقِيقِيِّ.
- الدَّهْرُ: اسْمٌ بِمَعْنَى حَوَادِثِ الدَّهْرِ وَصُرُوفِهِ، وَحَوَادِثُ الدَّهْرِ تَعْنِـي: الـمصَائِبَ، وَقَصَدَ الشَّاعِرُ بِهِ هُنَا (الاحْتِلَالَ)، فَأَطْلَقَ كُلًّا وَأَرَادَ بَعْضَاً.
- سَابِغَة: وَتَعْنِي الطَّوِيلَـة الوَاسِـعَة، وَتَـأْتِي – غَالِبَـاً – صِـفَةً لِمَوصُـوفٍ مَحْـذُوفٍ (الدِّرْع)، وَقَدِ اسْتَعْمَلَهَا الشَّاعِرُ هُنَا بِمَعْنَى: تَمَامِ العَيشِ وَرَغَدِهِ.
- مَشْرَفِيَّات: السُّيُوفُ الَّتِي تُجْلَبُ مِنْ مَشَارِفِ العِرَاقِ، أو اليَمَنِ، أَوْ بِلاَدِ الشَّامِ.
- خُرْصَان: جَمْعُ خُرْص، وَهِيَ الرِّمَاح، وَسُمِّيَتْ بِـ (خُرْصَـان)؛ نِسْـبَةً إِلَـى قريَـةٍ بِالبَحْرَينِ اشْتُهِرَتْ بِصِنَاعَةِ مِثْلِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الرِّمَاحِ[١٠].

فَهَذِهِ الرَّمْزِيَّةُ فِي اسْتِعْمَالِ دَلَالَاتِ الأَلْفَاظِ تَشِي بِـالنَّظْرَةِ الـمسْتَقْبَلِيَّةِ الثَّاقِبَـةِ، فَالشَّاعِرُ يَسْتَشْرِفُ الـمُسْتَقْبَلَ الـمُنْتَظَرَ لِلْبُلْدَانِ الإِسْلَامِيَّةِ، فَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ: إِنَّ الدَّهْرَ سَيَتَمَدَّدُ فِي الـمسْتَقْبَلِ لِيَصِلَ إِلَى كُلِّ بَلَدٍ يَعِيشُ فِي دَعَةٍ مِـنَ العَـيشِ غَـيرِ آبِـهٍ أَهْلُهُ بِمَا حَدَثَ بِالأَمَمِ السَّابِقَةِ – كَالأَنْدَلُسِ لأَنَّ أَهْلَهَـا لَـمْ يَتَعَلَّمُـوا فُنُـونَ اسْـتِعْمَالِ السِّلَاحِ لِلذَّودِ عَنْ حِيَاضِهِمْ وَلَمْ يُجَرِّدُوا السُّيُوفَ مِنْ أَغْمَـادِهِنَّ، بَـلِ انْصَـرَفُوا إِلَـى

مَجَالِسِ اللَهْوِ وَاللَعِبِ وَالتَّرَفِ – وَهَذَا مَصِيرُ مَـنْ يَحْـدُو حَـذْوَهُم، وَهَـذَا الـمَعْنَى مُرْتَبِطٌ بِالفِكْرَةِ الَّتِي تُرَاوِدُ الشَّاعِرَ، ذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ وَكَأَنَّهُ يُشَبِّهُ حَالَ الأَنْدَلُسِ – وَهِيَ تَلْتَحِفُ بِمَظَاهِرِ البُهْرُجِ الخَدَّاعِ – بِالـدُّرُوعِ السَّـابِغَةِ، فَالأَنْـدَلُسُ بِهَـذِهِ الصِّـفَةِ كَانَـتْ طُعْمَاً سَهْلَاً لِلْأَعْدَاءِ، كَذَلِكَ الدُّرُوعُ السَّابِغَةُ الَّتِي سَتَخْتَرِقُهَا رِمَاحُ الأَعْدَاءِ، وَهُنَا يُبَـيِّنُ الشَّاعِرُ أَثَرَ الدَّهْرِ فِي تَغْيِيرِ مَعَالِمِ الحَيَاةِ.

فَـجَـائِعُ الـدَّهْرِ أَنْـوَاعٌ منوَّعَـةٌ وللزَّمَـانِ مَسَـرَّاتٌ وَأَحْـزَانُ

مَا زَالَ الشَّاعِرُ يَنْظُرُ إِلَى الأَشْيَاءِ نَظْرَةَ الحَكِيمِ الَّذِي خَبِرَ الدُّنْيَا وَاللَيَالِي الغَادِرَةَ إِذْ تُفَاجِئُ الـمرْءَ؛ لِيَسْتَخْلِصَ مِنْهَا العِبَرَ وَالعِظَاتِ، وَهِيَ حِكْمَةٌ شَـبِيهَةٌ بِالحِكْمَـةِ فِـي البَيتِ السَّابِقِ (سَرَّ وَسَاءَ)، فَالطِّبَاقُ فِي هَذَا البَيتِ بَينَ (مَسَرَّات وَ أَحْزَان) قَرِيبٌ فِـي دَلاَلَتِهِ مِنْ دَلاَلَةِ البَيتِ الثَّانِي.

يَا غافِلَاً – وَلَهُ فِي الـدَّهْرِ مَوْعِظَـةٌ إِنْ كُـنْتَ فِي سِنَةٍ، فالدَّهْرُ يَقْظَـانُ

دَلاَلَةُ الطِّبَاقِ فِي (سِنَة وَ يَقْظَان) تَشِي بِتَقلُّـبِ الأُمُورِ إِلى الضِّـدِّ كَمَا حدثَ بالأندلسِ، فمَنْ يَعِشْ فِي غَفْلَةٍ، يَأْتِ عَلَيهِ يَومٌ عَسِيرٌ؛ لِيُوقِظَهُ مِنْ غَفْلَتِهِ، كَمَـا حَصَـلَ مَـعَ أَهْـلِ الأَندَلُسِ حِينَ كَانُوا مُتْرَفِينَ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ.

يَا مَـنْ لِـذِلَّةِ قَـوْمٍ بَعْـدَ عِـزِّهُمُ أَحَـالَ حـالَـهمُ جُـورٌ وَطُغْيَـانُ

تمثَّلَ الطِّبَاقُ هُنَا بَينَ (ذُلَّ وَ عِزَّ)، لإِظْهَارِ الحُزْنِ والتَّفجُّعِ وَالحَسْـرَةِ عَلَـى مُلْـكٍ زَائِلٍ، وَحَيَاةٍ عَزِيزَةٍ، وَعَيْشٍ رَغِيـدٍ. وَهُنَـا يَتَّسِـعُ إِحْسَـاسُ الشّـاعِرِ بِـالتَّحَوُّلِ السَّـلْبِيِّ لِحَرَكَةِ تقلُّبَاتِ الزَّمَنِ، فَيَذْكُرُ بَعْـضَ مَظَـاهِرِ العَظَمَـةِ الزَّائِلَـةِ لاَ عَلَـى سَـبِيلِ التَّأسِّـي فَحَسْب، بَلْ لِلإِيمَاءِ إِلَى أَنَّ مَا حَصَلَ بِالـمُدُنِ الأَنْدَلُسِيَّةِ هُوَ حَلْقَةٌ فِي سِلْسِلَةِ حَلَقَـاتِ الهَدْمِ الَّتِي تُمَارِسُهَا تَقَلُّبَاتُ الزَّمنِ عَلَى الحَضَارَةِ الإِنْسَانِيَّةِ.

بِالأَمْسِ كَانُوا مُلُوكَاً فِـي مَنَـازِلِهِمْ وَاليَوْمَ هُمْ فِي بِلاَدِ الكُفْـرِ عُبْـدَانُ

نلْحَظُ فِي هَذَا البَيتِ الطِّبَاقَ الـمكثَّفَ الَّذِي جَلَبَهُ الشَّاعِرُ؛ لِتَصْوِيرِ الحَالَةِ الَّتِي آلَ إِلَيهَا الأَنْدَلُسِيُّونَ، وَيَتَمَثَّلُ بِـ (الأَمْس "الـمَاضِي القَرِيب الـمَعْلُوم" واليَـومَ "الحَاضِـر البَعِيد الـمَجْهُول")، وَ (مُلُوكاً وعُبْدَان)، وَ (مَنَازِلِهم وبِلاَد الكُفْر)، وَلاَ أَظُـنُّ أنَّ هَـذِهِ الحَالَةَ فِي وَطَرٍ لِلَشَّرْحِ أوِ التَّفْسِيرِ، فَكُلُّ مَا يَتَقَيَّضُ قَولُهُ: إنَّ وَتِيرَةَ الحُزْنِ عِنْدَ الشَّـاعِرِ ارْتَفَعَتْ، فَازْدَحَمَتِ الـمُتَضَادَّاتُ فِي ذِهْنِهِ بِوَصْفِهَا رَدَّةَ فِعْلٍ طَبِيعِيَّةٍ لِحَالِ الأَنْدَلُس.

حَيْـثُ الـمَسَاجِدُ قَـدْ صَـارَتْ فِـيهِنَّ إِلَّـا نَـوَاقِيسٌ وَصُـلْبَانُ

الـمسَاجِدُ مِنَ الأَمَاكِنِ الـمقدَّسَةِ عِنْدَ الـمسْلِمِينَ، ارْتَبَطَتْ بِـاللهِ، وَتُقَـامُ فِيهَـا العِبَادَةُ، وَقَدْ رَمَى الشَّاعِرُ مِنْ ذِكْرِ (الـمسَاجِدِ وَالكَنَائِسِ) - بِوَصْفِهِمَا طَرَفَي أُسْلُوبِ الطِّبَاقِ - إلى تَهْيِيجِ مَشَاعِرِ الـمُسْلِمِينَ تِجَاهَ هَذَا الـمقدَّسِ، وَتِبْيَـانِ حَجْـمِ الأَعْمَـالِ التَّخْرِيبِيَّةِ الفَادِحَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا الاحْتِلاَلُ عِنْدَمَا نَفَشَ فِـي الـمُدُنِ الأَنْدَلُسِـيَّةِ، وَإِبـرازِ سَعْيِهِمُ الدَّؤُوبِ فِي تَغْيِيرِ مَعَالـمِ الحَضَارَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَمِنْ مَغَبَّـاتِ أَعْمَـالِهِمْ تَحَـوُّلُ الـمسَاجِدِ إِلَى مَسْرَحٍ لِلصُّلْبَانِ، وَمَكَانٍ لإِقَامَةِ الطُّقُوسِ الدِّينِيَّةِ الـمسِيحِيَّةِ كَالتَّرَاتِيـلِ وَدَقِّ النَّـوَاقِيسِ؛ لِـذَلِكَ أَلْفَيْنَـا تَوظِيـفَ الكَلِمَـاتِ ذَاتِ الدَّلاَلَـةِ الدِّينِيَّـةِ الـمتَضَادَّةِ الـموحِيَةِ بِطَبِيعَةِ الصِّرَاعِ العَقَدِيِّ إِبَّانَ الاحْتِلاَلِ.

مَادَا التَّقَاطُعُ فِـي الإِسْـلاَمِ بَيْـنَكُمُ وَأَنْـتُمُ - يَا عِبَـادَ اللهِ - إِخْـوَانُ

(التَّقَاطُع وإِخْوَان)، فَكَلِمَة التَّقَاطُع تَعْنِي: الاخْتِلاف وَالتَّفرِيق، وَالأُخُوَّةُ تَعْنِي: الائْتِلاَف وَالتَّوفِيق، وَالحَقِيقةُ أَنَّهُ لاَ تُوجَدُ شُـقَّةٌ - بِمَعْنَاهَـا الحَقِيقـيِّ الـوَاقِعِيِّ - بَـينَ الـمسْلِمِينَ، وَإِنَّـمَا صَوَّرَ الشَّاعِرُ ابْتِعَادَ الـمسْلِمِينَ فِـي الـمَنَاطِقِ الـمصَاقِبَةِ عَـنْ نُصْـرَةِ أَهْـلِ الأَنْدَلُسِ بِالانْتِكَاسِ، وَكَأَنَّهُ يَحُثُّ الـمسْلِمِينَ علَى التَّكاتُفِ وَالتَّضَافُرِ بِوسَاطَةِ سَرْدِ التَّناقُضِ.

ب. اللَّفْظَة الوَاحِدَة بِعَينِهَا تُوحِي إِلَى التَّحوُّل:

لِشِدَّةِ عِظَمِ الدَّورِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ المفْرَدَاتِ فِي اللُّغَةِ التَّوَاصُلِيَّة المنْطُوقَةِ وَالمكْتُوبَةِ، وَصَفَهَا عَبْد الله الغَذَّامِي بِقَولِهِ: "الكَلِمَاتُ دُمُـوعُ اللُّغَـةِ، وَالشِّـعْرُ بُكَـاءٌ فَصِـيحٌ"[11]،

وَقَالَ السَّرَخْسِيُّ: "الأَلْفَاظ قَوَالِب الـمعَانِي"[١٢].

يُلاَحَظُ أنَّ الـمُفْرَدَاتِ الَّتِي تَوَشَّحَت القَصِيدَةُ بِهَا كَثِيراً لَهَا شِيَةٌ تَدُلُّ فِي مَضْمُونِها عَلَى حَقْلٍ وَاحِدٍ؛ وَهُوَ حَقْلٌ يَدُورُ فِي مَفْهُومِ التَّحَوُّلِ والتَّغيُّرِ (مِنْ... إِلَى...)، وَقَدِ احْتَلَّتْ هَذِهِ الـمُفْرَدَاتُ شَأْوَاً عَالِيَاً فِي مَتْنِ القَصِيدَةِ، وَجَاءَتْ فَي مُعْظَمِهَا أَفْعَالاً؛ لِمَا لِلْفِعْلِ أَيْضَاً مِنْ دَلاَلَةٍ عَلَى الاسْتِمْرَارِ وَالتَّجَدُّدِ، وَقَدْ جَاءَتْ الأَلْفَاظُ مُتَمَشِّيَةً وَمُنَاسَبَةَ القَصِيدَةِ، إِذْ يُمْكِنُ رَصْدُ أَغْلَبِهَا بِمَا يَلِي:

	اللَّفْظَة	الـمَعْنَى
١-	دُوَلٌ	جَمْعُ (دَولَة): انْتَقَلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ[١٣]، وَقَدِيمَاً قَالُوا: (الدَّوائِرُ تَدُورُ، وَالدَّوَائِلُ تَدُولُ).
٢-	دَارَ	فِعْلٌ بِمَعْنَى طَافَ حَولَ الشَّيْءِ[١٤]، وَفِيهِ مَعْنَى الانْتِقَال وَالحَرَكَة، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الـمَصْدَرَ مِنْهُ (دَوَرَان) عَلَى وَزْن (فَعَلاَن)، وَهُوَ وَزْنٌ مُضْطَرِدٌ لِكُلِّ فِعْلٍ دَلَّ عَلَى اضْطِرَابٍ وَحَرَكَةٍ.
٣-	لا تُبقي	فِعْلٌ مَزِيدٌ أَصْلُهُ الثُّلاَثِيُّ الـمُجَرَّدُ (بَقِيَ)، وَمَصْدَرُهُ (البَقَاء)، وَمَعْنَاهُ ضِدُّ الفَنَاءِ، وَلَـمَّا أَدْخَلَ الشَّاعِرُ عَلَيهِ (لاَ) النَّافِيَةَ تَحَوَّلَ مَعْنَاهُ مِنَ البَقَاءِ إِلى الفَنَاءِ.
٤-	لا يَدُوم	فِعْلٌ مُضَارِعٌ يُفِيدُ الاسْتِمْرَارَ وَالتَّجَدُّدَ، وَمَعْنَاهُ: يَظَلُّ وَيَسْتَمِرُّ، وَلَـمَّا أَدْخَلَ الشَّاعِرُ عَلَيهِ (لاَ) النَّافِيَةَ تَحَوَّلَ مَعْنَاهُ إِلَى نَفْي الاسْتِمْرَارِ.
٥-	صَارَ	فِعْلٌ يُفِيدُ مَعْنَى التَّحَوُّلِ؛ فَنَقُولُ: صَارَ الثَّلجُ مَاءً، وَقَدْ وَظَّفَهُ الشَّاعِرُ مَرَّتَينِ فِي القَصِيدَةِ.
٦-	كَانَ	وُظِّفَ هَذا الفِعْلَ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي القَصِيدَةِ، وَجَاءَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ فِي صِيغَةِ الـماضِي؛ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيهِ الأَنْدَلُسُ قَبْلَ الاحْتِلاَلِ (أَيْ أَنَّ الحَاضِرَ لَمْ يَعُدْ كَالـماضِي، بَلْ تَحَوَّلَ).

	اللَفْظَة	الـمَعْنَى
٧-	هَوَى	سَقَطَ مِنَ الأَعْلَى إِلَى الأَسْفَلِ[١٥]، وَيُفِيدُ مَعْنَى الانْتِقَال مِـنْ الرِّفْعَـةِ إِلَى الانْحِطَاطِ.
٨-	انْهَدَّ	سَقَطَ[١٦].
٩-	خَلَتْ	فَرَغَ مِمَّا بِهِ[١٧]، دَلَّ هَذَا الفِعْلُ فِي القَصِيدَةِ عَلَى مَعْنَى التَّحَـوُّلِ مِـنَ الـمَكَانِ الـمَأْهُولِ إِلَى الـمُقْفِرِ.
١٠-	أَحَالَ	غَيَّرَ الشَّيْءَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَال[١٨].
١١-	يَذُوبُ	تَحَوَّلَ الشَّيْءُ مِنْ وَضْعٍ إِلَى آخَرَ، فَنَقُولُ: (ذَابَ الـثَّلجُ)؛ أيْ: تحـوَّلَ مِنَ الثَّلجِ (الحَالَة الصُّلْبَة) إِلَى الـمَاءِ (الحَالَة السَّائِلَة).
١٢-	قَضَوا	جَاءَ هَذَا الفِعْلُ فِي القَصِيدَةِ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى مَعْنَى الـمَوْتِ، وَالـموتُ فِيهِ دَلاَلَةٌ عَلى التَّحَوُّلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَال، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾[١٩].
١٣-	تَفَرَّقَ	تَبَاعَدَ الشَّيئَان؛ أي الفَتْق بَعْدَ الرَّتْق.
١٤-	أَقْفَرَتْ	هَذَا الفِعْلُ لَهُ دَلاَلَةٌ مُشَابِهَةٌ لِلْفِعْلِ (خَلاَ).
١٥-	لَـمْ يَسْهُلْ	انْتَقَل مِنَ السُّهُولَةِ إِلى الصُّعُوبةِ.
١٦-	لم تَبْقَ	انْظُرْ مَعْنَى الكَلِمَةِ ذَاتِ الرَقَم(٣).

٢. الظَّوَاهِرُ البَلاَغيَّة:

- **تَوْظِيفُ الجُمْلَةِ الإنشائيَّةِ الطَّلَبِيَّةِ:**

يَظْهَرُ جَلِيًّا لِلْعِيَان أَثَرُ تَوْظِيفِ الجُمْلَةِ الإِنْشَائِيَّةِ الطَّلَبِيَّةِ (الأَسْـلُوب الانْفِعَـالِيِّ) فِي القَصِيدَةِ، الَّتِي جَاءَ بِهَا الشَّاعِرُ فِيمَا يَبْدُو؛ لِتَوْشِيحِ مَعَانِيهِ بِالبَوْحِ عَنِ القَلَقِ النَّفْسِيِّ الَّذِي يُهَيْمِنُ عَلَيهِ، وَهَذَا مَا تَمَخَّضَ عَنْ أَفَانِينِ أَلْفَاظِهِ وَجُمَلِهِ، وَأَقَانِيمِ أَبْيَاتِهِ.

هَذِهِ الجُمْلَةَ - غَالِبَاً - مَا تَنْزَاحُ مَعَانِيهَا مِنَ الحَقِيقَةِ إِلَى الـمجَازِ، فَتَجْعَـلُ مِـنْ أَلْفَاظِهَا وَعِبَارَاتِهَا فَرَسَاً جَامِحَةً لاَ حَرُونَاً، وَلَمَا كَانَت انْفِعَالاَتُ الشَّاعِرِ شَـدِيدَةً، زَاعَ

الشَّاعِرُ إِلَى اسْتِعْمَال تَعْبِيرَاتٍ غَيرِ مَأْلُوفَـةٍ، فَتَحَـوَّلَ إِلَـى الجُمْلَـةِ الإِنْشـائِيَّةِ الطَّلَبِيَّـةِ؛ لِتَنْسَجِمَ مَعَ الحَدَثِ الجَلَلِ، وَهِيَ مُرُونَةٌ تُتِيحُ تَدَخُّلَ نَفْسِيَّةِ الشَّاعِرِ فِـي لُغَتِـهِ الشِّـعْرِيَّةِ عِنْدَ التَّعْبِيرِ عَنِ انْفِعَالاَتِهِ الطَّافِحَةِ بِالأَسَى حَسْبَ التَّغيُّرَاتِ الـمحِيطَةِ بِهِ، وَفِي الوَقْتِ ذَاتِهِ تُظْهِرُ انْعِكَاسَ ثُنَائِيَّةِ التَّحَوُّل فِي الأَنْدَلُسِ - وَهِيَ الفِكْرَةُ الرَّئِيسَةُ فِي القَصِيدَةِ - الَّتِي يُكَابِدُهَا الشَّاعِرُ، ذَلِكَ أَنَّ الجُمْلَةَ الإِنْشَائِيَّةَ تَرْتَكِزُ أَسَاسَاً عَلَى مَعْنَى التَّحَـوُّل مِـنَ الحَقِيقَةِ إِلَى الـمجَازِ. وَيُمْكِنُ التَّدْلِيلُ عَلَى أَبْرَزِ مَوَاطِنِ هَذِهِ الجُمْلَةِ فِي القَصِـيدَةِ بِمَـا يَلِي:

لِكُـلِّ شَـيْءٍ إِذَا مَـا تَـمَّ نُقْصَـانُ فَـلاَ يُغَـرّ بِطِيـبِ العَـيشِ إِنْسَـانُ

عِنْدَمَا عَجَّزَ الشَاعِرُ، اسْتَعْمَلَ جُمْلَةً إِنْشَائِيَّةً طَلَبِيَّةً مُتَمَثِّـلَةً بِـالنَّهْيِ (لاَ يُغَـرّ)، وَقَدِ انْزَاحَ (النَّهْيُ) مِنْ مَعْنَاهُ الحَقِيقِيِّ إِلَـى الـمجَازِيِّ (الإِرْشَـاد وَالنُّصْـح)، وَسَـبَبُ لُجُوءِ الشَّاعِرِ إِلَى هَذِهِ الجُمْلَةِ يَفِيْءُ إِلَى الـمعْنَى الَّـذِي قَصَـدَهُ (تَقْـدِيم حِكْمَـةٍ فِيهَـا النُّصْحُ والإِرْشَادُ)، فَكَمَا أَنَّهُ قَدَّمَ النُّصْـحَ وَالإِرْشَـادَ مَعْنَـىً، اسْـتَلْزَمَ ذَلِـكَ اسْـتِعْمَالَ الجُمْلَةَ الإِنْشَائِيَّةَ مَبْنَىً.

أَيْنَ الـمـلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ وَأَيْـنَ مِـنْهُمْ أَكَالِيـلٌ وَتِيجَـانُ
وَأَيْـنَ مَـا شَـادَهُ شَـدَّادُ فِـي إِرَمٍ وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الفُرْسِ سَاسَـانُ
وَأَيْنَ مَا حَـازَهُ قَـارُونُ مِـنْ ذَهَـبٍ وَأَيْـنَ عَـادٌ وَشَـدَّادٌ وَقَحْطَـانُ

يَظْهَرُ الاسْتِفْهَامُ فِي الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ بِوُسَاطَةِ اسْمِ الاسْتِفْهَامِ (أَيْنَ)، الَّذِي كَرَّرَهُ الشَّاعِرُ فِي صَدَارَةِ شَطْرَيْهِنَّ مُتَسَائِلاً - فِي مَعْنَاهُ الحَقِيقِيِّ - عَنْ مَصِيرِ مُلُـوكٍ وَقَـادَةٍ جَبَابِرَةٍ، لَبِسُوا تِيجَانَاً وَأَكَالِيلَ، وَبَذَلُوا الغَالِي وَالنَّفِيسَ فِـي بِنَـاءِ مَمَـالِكِهِمْ، وَتَمَلَّكُـوا أَمْوَالاً كَثِيرَةً كَقَارُونَ، الَّذِي آتَاهُ اللهُ مِنَ الكُنُوزِ مَـا إِنَّ مَفَاتِحَـهُ لَتَنُـوءُ بِالعُصْـبَةِ أُولِـي القُوَّةِ. أَمَّا مَعْنَاهُ الـمَجَازِيُّ، فَإِنَّهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ ذَهَابِهِمْ وَزَوَالِ مَمَالِكِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ، وَفِي الوَقْتِ ذَاتِهِ يَسْعَى الشَّاعِرُ مِنَ الضَّرْبِ بِهِمْ مَثَلاً إِلَى تَقْـدِيمِ الإِرْشَـادِ وَالنُّصْـحِ؛ بُغْيَـةَ

أَخْذِ العِبْرَةِ مِنْ حِالِهِمْ وَحَالِ الأُمَمِ الَّتِي خَلَتْ، فَكَانَ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيهَا مَا اكْتَسَبَتْ، وَدَلاَلَةُ هَذَا الانْزِيَاحِ يَتَنَاسَبُ وَمقْصِدَ الشَّاعِرِ.

فَاسْأَلْ بَلَنْسِيَةً مَا شَأْنُ مُرْسِيَةٍ ... وَأَيْنَ شَاطِبَةٌ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ
وَأَيْنَ قُرْطُبَةٌ دَارُ العُلُومِ فَكَمْ ... مِنْ عَالِم قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانُ
وَأَيْنَ حِمْصُ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزَهٍ ... وَنَهْرُهَا العَذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلْآنُ

الشَّاعِرُ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ يَتَسَاءَلُ عَنْ مُدُنِ الأَنْدَلُسِ المشْهُورَةِ وَفِي نَفْسِهِ غُصَّةٌ وَتَحَسُّرٌ عَلَى مُلْكٍ زَائِلٍ، فَوَجَدَ فِي الجُمَلِ الإِنْشَائِيَّةِ الطَّلَبِيَّةِ مُبْتَغَاهُ عَبْرَ أُسْلُوبِ الأَمْرِ فِي الفِعْلِ (اسْأَلْ)، وَأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ فِي الاسْمَينِ (مَا، أَيْنَ)، اللَّذَينِ خَرَجَا مِنْ مَعْنَاهُمَا الحَقِيقِيِّ (الأَمْر وَالاسْتِفْهَام) إِلَى المجَازِيِّ (التَّحَسُّر)، وَنَجِدُ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ وَالأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ - عِنْدَ الحَدِيثِ عَنِ المُلُوكِ - تَكْرَارَ اسْمِ الاسْتِفْهَامِ (أَيْنَ) الَّذِي أَرَادَ بِهِ الشَّاعِرُ الإِلْحَاحَ عَلَى سَمْعِ المتَلَقِّي، فَلاَ يَدَعُ لَهُ الإِفْلاَتَ، وَيَأْخُذُ بِمَجَامِعِ سَمْعِهِ وَوجْدَانِهِ مَعَاً.

يَا غَافِلاً - وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ ... إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةٍ فَالدَّهْرُ يَقْظَانُ
وَمَاشِيَاً مَرِحَاً يُلْهِيهِ مَوْطِنُهُ ... أَبَعْدَ حِمْصٍ تَغُرُّ المرْءَ أَوْطَانُ؟

اشْتَمَلَ البَيْتَانِ عَلَى قِسْمَينِ مِنْ أَقْسَامِ الجُمْلَةِ الطَّلَبِيَّةِ؛ وَهُمَا (النِّدَاء وَالاسْتِفْهَام)، وَيَتَمَثَّلاَنِ فِي (يَا النِّدَاءِ وَهَمْزَةِ الاسْتِفْهَام)، وَقَدِ انْزَاحَ مَعْنَاهُمَا مِنَ الحَقِيقَةِ إِلَى المجَازِ (التَّعَجُّب وَالتَّذْكِير)، وَهَذَا الانْزِيَاحُ مَقْصُودٌ مِنْ لَدُن الشَّاعِرِ، الَّذِي يَتَعَجَّبُ (بِالاسْتِفْهَامِ) مِنَ المرْءِ القَاطِنِ فِي البُلْدَانِ المجَاورَةِ كَيْفَ أَنَّهُ يَعِيشُ غُلْوَاءَ شَبَابِهِ غَافِلاً، ثُمَّ أَرَادَ الشَّاعِرُ مِن اسْتِعْمَالِ أُسْلُوبِ النِّداءِ أَنْ يُنَبِّهَ الغَافِلَ (شَارِدَ الذِّهن)، وَيَشُدَّهُ إِلَى مَا يَقُولُ؛ لِيُنْقِذَهُ مِنْ غَفْلَتِه وَشُرُودِ ذِهْنِهِ فِي الوَقْتِ الَّذِي يُقَدِّمُ لَهُ جُمْلَةً مِنَ العِبَرِ وَالنَّصَائِحِ المسْتَقَاةِ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ عَبْرَ مَدِينَةِ (حِمْص) الَّتِي اسْتَجْلَبَهَا مِثَالاً بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ.

يَـا رَاكِـبِينَ عِتَـاقَ الخَيـلِ ضَـامِرَةً ... كَأَنَّهَـا فِـي مَجَـالِ السَّـبْقِ عِقْبَـانُ
وَحَـامِلِينَ سُـيُوفَ الهِنْـدِ مُرْهَفَـةً ... كَأَنَّهَـا فِـي ظَـلاَمِ النَّقْـعِ نِـيرَانُ
وَرَاتِعِـينَ وَرَاءَ البَحْـرِ فِـي دَعَـةٍ ... لَهُـمْ بِأَوْطَـانِهِمْ عِـزٌّ وَسُـلْطَانُ

يُنَادِي الشَّاعِرُ أَهْلَ الـمغْرِبِ؛ وَيَسْتَغِيثُ بِهِمْ، لاسْتِرْدَادِ مَـا سُـلِبَ، أَوْ - عَلَـى الأَقَلِّ - الحِفَاظِ عَلَى مَا تَبَقَّى مِنَ الـمدُنِ الأَنْدَلُسِيَّةِ، لَكِنَّـهُ فِـي قَـرَارَةِ نَفْسِـهِ - عَلَـى الأَرْجَحِ - لَيسَ مُتَفَائِلاً بِتَلْبِيَتِهِمْ طَلَبَهُ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الأَمْرَ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيًّا؛ لأَنَّهُـمْ مُنْشَغِلُونَ بِمَظَاهِرِ التَّرَفِ وَمَتَاعِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا، فَلَمْ يَأْبَهُوا بِمَا حَدَثَ فِـي الأَنْـدَلُسِ، وَلَمْ يَهُبُّوا إِلَى نُصْرَةِ إِخْوَانِهِمْ، فَهُمْ - كَمَا يَصِفُهُمْ - يَرْكَبُونَ الخُيُولَ النَّجَائِبَ؛ بُغْيَـةَ الـمبَارَاةِ فِي مِضْمَارِ السِّبَاقِ، وَيَحْمِلُونَ السُّيوفَ الـمرْهَفَةَ، وَيَرْتَعُـونَ فِـي سَـعَةٍ مِـنَ العَيشِ وَفِي ظِلِّ أَمْنٍ وَغِبْطَةٍ، وَيَحْيَونَ حَيَاةً نَاعِمَةً كَنُوَّارِ الخَمِيلَةِ، وَكَأَنَّ بِالشَّاعِرِ يُـرَدِّدُ القَولَ (مَا لِلْأَعْمَى وَالـمرْآة، وَمَا لِلْمُقْعَدِ وَالـمِرْقَاة)، فَمَا فَائِدَةُ امْتِلاَكِ السُّيُوفِ الهِنْدِيَّةِ إِنْ لَمْ تَجِدْ أَيَادِيَ تَحْمِلُهَا؟ وَمَا جَـدْوى الخُيُـولِ الأَصِـيلَةِ إِنْ عَطَّلَهَـا القَاعِـدُونَ عَـنِ القِتَالِ؟

جُلُّ هَذِهِ النُّعُوتِ أَثَارَتْ حَفِيظَةَ الشَّاعِرِ؛ لِذَا جَاءَ بِأُسْـلُوبِ النِّـدَاءِ فِـي سِـيَاقِ جُمْلَةٍ طَلَبِيَّةٍ؛ لِيَدُلَّ فِي مَعْنَاهُ الـمجَازِيِّ عَلَى التَّعجُّبِ مِـنْ حَـالِ إِخْوَانِـهِ الـمسْلِمِينَ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْصُـرُوا الأَنْدَلُسِـيِّينَ عَلَـى الـرَّغْمِ مِـنْ كُـلِّ الإِمْكَانَـاتِ وَالقِـوَى الَّتِـي يَتَمَتَّعُونَ بِهَا وَيَتَنَعَّمُونَ، إِذْ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّقَارُبِ لاَ التَّضَارُبِ، وَالائْتِلاَفِ لاَ الاخْتِلاَفِ.

شَدَّتِ الصِّـيغَةُ الإِنْشَائِيَّةُ الطَّلَبِيَّةُ عَضُـدَ هَذِهِ الـمؤَثِّرَاتِ الانْفِعَالِيَّـةِ الَّتِـي تَهُـزُّ الـمتَلَقِّي، وَهِيَ مُنَبِّهَاتٌ مُحَمَّلَةٌ بِطَاقَاتٍ انْفِعَالِيَّةٍ تُقِيمُ صِلاَتٍ إِنْسَـانِيَّةً وَوجْدَانِيَّـةً بَـينَ الشَّاعِرِ وَالـمتَلَقِّي، وَالـمتَلَقِّي يُشَارِكُ فِي إِنْتَاجِهَا وَإِتْمَامِهَا.

أَعِنْـدَكُمْ نَبَـأٌ مِـنْ أَهْـلِ أَنْـدَلُسٍ ... فَقَدْ سَرَى بِحَـدِيثِ القَـوْمِ رُكْبَـانُ

بَعْدَ أنْ نَعَتَ الشَّاعِرُ فِـي الأَبْيَـاتِ السَّـابِقَةِ أَهْـلَ الــمغْرِبِ بِأَوْصَـافِ التَّـرَفِ وَالـمظَاهِرِ الدُّنْيَوِيَّةِ، جَنَحَ فِي هَذَا البَيتِ إِلَى الاسْتِفْهَامِ فِي سِيَاقِ جُمْلَةٍ طَلَبِيَّةٍ؛ لإِفَادَةِ مَعْنَى الاسْتِبْعَادِ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّوبِيخِ، فَالشَّاعِرُ لاَ يَسْتَبْعِدُ عِلْمَ الـمسْلِمِينَ فِي الــمغْرِبِ بِخَبَرِ الأَنْدَلُسِ؛ لأنَّ هَذَا الخَبَرَ أَدَاعَهُ الرُّكْبَانُ وَالرِّفَاقُ، وَطَارَ فِي الآفَاقِ، لَكِنَّهُمْ - كَمَا يَبْدُو - صَمُّوا آذَانَهُمْ؛ لانْشِغَالِهِمْ بِأُمُورٍ أُخَرَ.

● **الـمَجَاز العَقْلِيّ:**

يَدُورُ هَذَا الـمظْهَرُ فِي فَلَكِ مَفْهُومِ "إِسْنَادِ الفِعْلِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ إِلَى غَيرِ فَاعِلِهِ الحَقِيقِي"[٢٠]، وَيُعَدُّ هَذَا الـمظْهَرُ شَكْلاً مِنْ أَشْكَالِ التَّحَوُّلِ فِي نَمَطِيَّةِ اسْـتِعْمَالِ الفِعْـلِ مَعَ فَاعِلِهِ.

وَإِخَالُ أنَّ الشَّاعِرَ حِينَ وظَّفَهَا أَرَادَ مِنْهَا الدَّلاَلَةَ عَلَى الـمبَالَغَةِ؛ لِصَـرْفِ النَّظَـرِ إِلَيهَا، وَذَلِكَ فِي إِشَارَةٍ إِلَى عِظَمِ الفَاجِعَةِ الَّتِي أَلَـمَّتْ بِبَلَدِهِ.

هِيَ الأُمُورُ - كَمَـا شَاهَــدْتَهَا - مَــنْ سَــرَّهُ زَمَـنٌ سَـاءَتْهُ أَزْمَـانُ

أُسْنِدَ الفِعْلاَنِ الـماضِيَانِ (سَرَّ، وسَاءَ) إِلَـى الـزَّمَنِ، وَهُـوَ فَاعِـلٌ غَـيرُ حَقِيقِـيٍّ لِلْفِعْلَينِ، فَالزَّمَنُ سَاعَاتٌ تَمْضِي، وَالـمقْصُودُ بِهِ صُرُوفُ الزَّمَنِ، فَجَاءَتِ العَلاَقَةُ بَـينَ الفِعْلَـينِ وَالفَاعِـلِ عَلاَقَـةً زَمَانِيَّـةً، وَقَـدْ تَعَـدَّتْ دَلاَلَـةُ الفِعْلَـينِ مِـنَ الــماضِي إِلَـى الـمسْتَقْبَلِ؛ لأنَّ السَّرَّاءَ وَالضَّرَّاءَ لاَ يَتَوَقَّفَانِ عِنْـدَ الــماضِي فَحَسْـب. فَالشَّـاعِرُ أَبْـرَزَ الزَّمَنَ فِي صُورَةٍ مَحْسُوسَةٍ، ثُمَّ أَضْفَى عَلَيـهِ ظِلاَلَـاً مِـنَ الجَمَـالِ، فَخُيِّـلَ لِلسَّـامِعِ أنَّ لِلزَّمَنِ قَلْبَاً مُتَقلِّباً مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَهَذَا الأُسْلُوبُ فِيهِ دَلاَلَةٌ عَلَى التَّنْبِيهِ وَالإِرْشَـادِ مِنَ الزَّمَنِ.

وَإِذْ أَيْقَظَ سُقُوطُ الأَنْدَلُسِ فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ الإِحْسَاسَ بِحَرَكَةِ الـزَّمَنِ وَحَـدَثَانِ الدَّهْرِ، فَقَدْ صَوَّرَهُ بِقُوَّةٍ سَلْبِيَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى الإِهْلاَكِ وَالهَـدْمِ وَالتَّخْرِيـبِ وَالتَّشْـوِيهِ فِـي

مَعَالـم الحَضَارَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَهَذَا الـمنْظَرُ الـمخِيفُ يُشِيعُ الارْتِيَاعَ وَالفَزَعَ فِـي نُفُـوسِ الوَرَى؛ لِيَحْتَرِزَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُ، وَيَأْخُذَ حِذْرَهُ.

حَتَّـى الـمحَارِيبُ تَبْكِـي وَهْـيَ حَتَّى الـمنَابِرُ تَرْثِـي وَهْـيَ عِيـدَانُ

الـمحَارِيبُ (جَمْعُ مِحْرَاب)، وَلِهَذِهِ الـمفْرَدةِ أَمَارَاتٌ وَرُمُوزٌ يُمْكِنُ تَوضِيحُهَا بِمَا يَلِي:

- مَكَانٌ لِلْعِبَادَةِ وَالقِيَادَةِ: إِذْ يَقِفُ الإِمَامُ فِيهِ آمًّـا لِلْمُصَلِّينَ.
- مَكَانٌ لِلاعْتِزَال: إِذْ يَتفرَّدُ فِيهِ الـمتَعَبِّدُ انْكِسَـارَاً وَخُبُوتَـاً للهِ، فَتَـدْرِفُ العَـينُ عِنْـدَ اسْتِشْعَارِ خَشْيَةَ اللهِ، وَيَدْعُو العَبْدُ فِيهِ طَلَبَاً فِي تَوْسِعَةِ الرِّزقِ - كَمَـا كَانَـتْ مَـرْيمُ عَلَيهَا السَّلاَمُ تَدْعُو رَبَّهَا - وَالخَيرِ وَالطُّمَأْنِينَةِ.
- البُوصَلَةُ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى القِبْلَةِ وَمُقَدِّمَةِ الـمسْجِدِ.
- مَكَانُ اسْتِقْبَالِ العَالـم الجَلِيلِ، وَاسْتِدْبَارِ الدُّنْيَا.

فَالـمحْرَابَ مَكَانٌ لِبُكَاءِ الإِنْسَانِ فِي العِبَادَةِ، لَكِنَّ الشَّـاعِرَ جَعَـلَ الـمحَارِيبَ نَفْسَها هِي الَّتِي تَبْكِي عَلَى الرَّغْمِ مِنْ جُمُودِهَا، فَصَـوَّرَهَا بِإِنْسَـانٍ يَمْتَلِـكُ العَوَاطِـفَ وَالأَحَاسِيسَ، وَتَنْهَمِرُ مِنْ عَينَيهِ الهَوَامِعُ؛ لِفَقْدِ حَبِيبٍ قَرِيبٍ إِلَيهِ، وَهَذِهِ صُـورَةٌ حَزِينَـةٌ مِلْؤُهَـا الأَسَـى وَالتَّفجُّـعُ عَلَـى الأَنْـدَلُسِ، فَالـمحَارِيبُ تَبْكِـي؛ لأَنَّهَـا أَقْفَـرَتْ مِـنَ الـمصَلِّينَ، وَأَقْوَتْ مِنَ الـمتَعَبِّدِينَ جَـرَّاءَ مَـوتِهِمْ أَوْ هِجْـرَتِهِمْ، فَرَسَـمَ الشَّـاعِرُ هَـذِهِ الصُّورَةَ؛ لِبَيَانِ أَنَّ دَلاَلَةَ الـمحَارِيبِ الدِّينِيَّةِ انْعَدَمَتْ بَعْدَ الاحْتِلاَلِ.

أَمَّا الـمنَابِرُ (جَمْعُ مِنْبَر) فَهُوَ اسْمُ مَكَانٍ عَلَى وَزْنِ (مِفْعَل)، وَيُقصَدُ بِهِ الـمكَانُ الَّذِي يَرْتَقِي إِلَيهِ الخَطِيبُ؛ لِيَرَاهُ النَّاسُ وَهُوَ يُحَدِّثُهُمْ، وَحِينَ أُسْـنِدَ الفِعْـلُ الـمضَارِعُ (يَرْثِي) إِلَى الـمنَابِرِ، خَرَجَتْ دَلاَلَتُهُ مِنَ الحَقِيقَـةِ إِلَـى حَيِّـزِ الـمجَازِ فَالشَّـاعِرُ صَـيَّرَ الـمنَابِرَ تَرْثِيَ الخُطَبَاءَ الَّذِينَ لَمْ تَبْقَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا مُجَرَّدُ أَخْشَابٍ.

● **إيجَازُ الـحَـذْفِ:**

الحَذفُ مِنَ الظَّوَاهِرِ اللُّغَوِيَّةِ العَامَّةِ "الَّتِي تَشْتَرِكُ فِيهَا اللُّغَاتُ الإِنْسَانِيَّةُ، إِذْ يَمِيلُ النَّاطِقُونَ إِلَى حَذْفِ بَعْضِ العَنَاصِرِ الـمكَرَّرَةِ فِي الكَـلاَمِ، أَوْ إِلَـى حَـذْفِ مَـا يُمْكِـنُ لِلْمُسْتَمِعِ فَهْمُهُ تَعْوِيلاً عَلَى القَرَائِنِ الـمصَاحِبَةِ حَالِيَةً كَانَـتْ أَمْ عَقْلِيَّـةً أَمْ لَفْظِيَّـةً"[٢١]، وَهُنَا تَظْهَرُ ثِقَةُ الـمتَكَلِّمِ بِعِلْمِ الـمتَلَقِّي، ذَلِكَ أَنَّ الـمتَكَلِّمَ يَحْـذِفُ عَـادَةً مَـا يُدْرِكُـهُ الـمتَلَقِّي، وَيُـؤَدِّي الـمتَلَقِّي بِهَـذِهِ الحَالَـةِ دَوراً إِيجَابِيًّـاً عِنْـدَمَا يَسْـعَى إِلَـى تَقْـدِيرِ الـمحْذُوفِ وإِدْرَاكِهِ اعْتِمَاداً عَلَى قَصْدِ الـمتَكَلِّمِ.

أَجَازَت اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الحذْفَ عِنْدَ تَمَامِ الـمعْنَى، أَوْ عِنْدَ وُجُودِ مَـا يَسُـدُّ مَسَـدَّ المحْذُوفِ وَيُغْنِي عَنْ ذِكْرِهِ، وَلَكِنْ مَعَ وُجُودِ فَارِقٍ بَينَ الحَـذْفِ وَالاسْـتِغْنَاءِ، ذَلِـكَ أَنَّـهُ يَجُوزُ الإِضْمَارُ وَالإِظْهَارُ فِي حَالَةِ الحَذْفِ، وَلَكِنَّ الجَوَازَ مُتَعَذِّرٌ فِي حَالَـةِ الاسْـتِغْنَاءِ؛ لأَنَّهُ مَتَى اسْتَغْنَينَا، تَطَلَّبَ الأَمْرُ الإِضْمَارَ.

فَالحَذْفُ بَابٌ فِيهِ إِكْثَارٌ لِلْمَعْنَى مَعَ حَذْفِ شَيْءٍ مِنَ الـمبْنَى، وَلَكِنْ مَـعَ وُجُـودِ قَرِينَةٍ دَالَّةٍ عَلَيهِ؛ لإِفَادَةِ غَرَضٍ نَفْسِيٍّ مَحْضٍ يَقْصِدُهُ الـمتَكَلِّمُ، يَقُـولُ الجُرْجَـانِيّ عَـنِ الحَذْفِ: "هُوَ بَابٌ دَقِيقُ الـمسْلَكِ، لَطِيفُ الـمأْخَذِ، عَجِيبُ الأَمْرِ، شَبِيهٌ بِالسِّحْرِ، فَإِنَّكَ تَرَى بِهِ تَرْكَ الذِّكْرِ أَفْصَحَ مِنَ الذِّكْرِ، وَالصَّمْتَ عَنِ الإِفَادَةِ أَزْيَدَ لِلْإِفَادَةِ، وَتَجِدُكَ أَنْطَقَ مَا تَكُونُ إِذَا لَمْ تَنْطِقْ، وَأَتَمَّ مَا تَكُونُ بَيَانًا إِذَا لَمْ تُبِنْ"[٢٢].

إِذًا، الحَذْفُ مِنْ دَيدَنِ العَرَبِيَّةِ، لِذَلِكَ تَتَعَدَّدُ صُوَرُهُ فِي الأَدَاءَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، فَيَـأْتِي حَرْفًا، أَوْ كَلِمَةً، أَوْ جُمْلَةً، وَثَمَّةَ شَوَاهِدُ عَدِيدَةٌ عَلَى ذَلِـكَ أَمَـدَّتْنَا بِهَـا الاسْـتِعْمَالاَتُ وَالتَّعْبِيرَاتُ اللُّغَوِيَّةُ فِي التُّرَاثِ اللُّغَوِيِّ"[٢٣].

تَأْسِيسًا عَلَى ذَلِكَ، جَازَ لَنَـا أَنْ نَبْحَـثَ عَـنْ تَعْلِـيلاَتٍ لِمَـواطِنِ الحَـذْفِ الَّتِـي تَوَشَّحَتْ بِهَا القَصِـيدَةُ، إِذْ تَطَلَّبَـهُ الحَـالُ فِـي غَـيرِ مَـوْطِنٍ، لِـذَلِكَ تَنَوَّعَـتْ أَشْـكَالُهُ،

وَتَعَدَّدَتْ صُوَرُهُ، دَلِكَ أَنَّ انْقِلاَبَ حَالِ الأَنْدَلُسِ عَلَى نَحْوٍ غَيرِ مَأْلُوفٍ، حَدَا بِالشَّاعِرِ أَنْ يُقَابِلَهُ بِاسْتِعْمَالِ أُسْلُوبِ الحَـذْفِ فِـي الـمبْنَى؛ لِيَرْبِطَـهُ بِالـمعْنَى الَّـذِي يَقْصِـدُهُ الشَّاعِرُ، فَالأَصْلُ فِي التَّرْكِيبِ اللُغَوِيِّ ذِكْرُ مُكَوِّنَاتِهِ وَمُكَمِّلاَتِهِ اللُغَوِيَّةِ، لَكِـنَّ الشَّـاعِرَ آثَرَ اسْتِعْمَالَ النَّمَطِ الآخَرِ؛ لِيُومِئ إِلَينَا أَنَّ التَّحَوُّلَ فِي الأَنْدَلُسِ، تَطَلَّبَ أَيْضَاً التَّحَـوُّلَ فِي اللُغَةِ، مَعَ مُرَاعَاةِ الفَارِقِ بَيْنَهُمَا، دَلِكَ أَنَّ التَّحَوُّلَ فِي الأَنْدَلُسِ - فِي نَظَرِ الشَّـاعِرِ - غَيرُ مَأْلُوفٍ أَوْ مُبَاحٍ، لَكِنَّ التَّحَوُّلَ فِي اللُغَـةِ - فِـي نَظَـرِ النَّحْـوِيِّينَ وَالبَلاَغِـيِّينَ - مَأْلُوفٌ وَمُبَاحٌ، وَلَكِنْ يَجْمَعُهُمَا قَاسِمٌ مُشْتَرَكٌ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ حَالَةُ (التَّحَوُّل).

يُمـزِّق الـدَّهْرُ حَتْمَـاً كُـلَّ سَـابِغَةٍ إِذَا نَبَـــتْ مَشْــرَفِيَّاتٌ وخُرْصَــانُ

بَيْنَ الـموْصُوفِ وَالصِّفَةِ ارْتِبَاطٌ وَثِيقٌ فِي مَأْلُوفِ التَّعْبِيرِ أَوْ مَعْهُودِ الاسْتِعْمَالِ، حَتَّى رَأَيْنَا غَالِبَ النَّحْوِيِّينَ لَمْ يُجِيزُوا الفَصْلَ بَيْنَهُمَا؛ لأَنَّهُمَا بِمَنْزِلَـةِ الشَّـيْءِ الوَاحِـدِ، وَلَكِنْ قَدْ يُحْذَفُ الـموْصُوفُ، فَتَنُوبُ عَنْهُ الصِّفَةُ - لِشُهْرَتِهَا أو اخْتِصَاصِهَا بِالـموْصُوفِ - وَتَقُومُ مَقَامَهُ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ قَدِيمَةٌ قِدَم البَحَثِ فِي اللُغَةِ شِعْرِهَا وَنَثْرِهَا مَعَاً.

يَكْثُرُ فِي الاسْتِعْمَالِ اللُغَوِيِّ تَوْظِيفُ الصِّفَةِ (سَابِغَة) مَعَ الـمَوْصُوفِ الـمحْذُوفِ (الدِّرْع)، حَتَّى أَنَّهُ لاَ يَكَادُ يُصَرَّحُ بِلَفْظَةِ (الدِّرْع) مَعَهَا، إِذْ بَاتَ عُرْفَاً فِي الأَدَاءِ اللُغَوِيِّ، وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الحَالَةُ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ ﴾[٢٤].

حَذَفَ الشَّاعِرُ الـموْصُوفَ (الدِّرْع) - عَلَى مَـا يَبْـدُو - وَأَقَـامَ الصِّـفَةَ مَقَامَـهُ؛ لِلْعِنَايَةِ بِالصِّفَةِ؛ لأَنَّ غَايَةَ مَا يَرْمِي إِلَيهِ الشَّاعِرُ هُوَ الاهْتِمَامُ بِذِكْرِ صِفَاتِ لَأْمَةِ الحَـرْبِ (الدُّرُوع، السُّيُوف، الرِّمَاح...)، وَلَيسَ بِـذِكْرِ الـموْصُوفَاتِ نَفْسِـهَا، لأَنَّ الـدُّرُوعَ أَوِ السُّيُوفَ أَوِ الرِّمَاحَ تَتَشَابَهُ مَعَ مَثِيلاَتِهَا مِنْ جِنْسِهَا، لَكِنَّ الـمفَاضَلَةَ أو الفَـرْقَ بَيْـنَهُنَّ تَكُونُ فِي الصِّفَةِ (الجَوْدَة)، الَّتِي تُحْدِثُ الغَلَبَةَ فِي الحَرْبِ، إِلَى جَانِبِ تَمَرُّسِ لابِسِيهَا وَمُتَقَلِّدِيهَا عَلَى القِتَال.

وَمَرَامُ الشَّاعِرِ الإِشَارَةُ إِلَى مَغَبَّةِ الإِفْرَاطِ بِالـمظَاهِرِ الزَّائِفَـةِ وَالبُهْـرُجِ الخَـدَّاعِ، فَطُولُ الدُّرُوعِ وَسَمَاكَتُهَا، لَنْ يُغْنِيَ شَـيْئًا، أَوْ يَـدْرَأَ هَجَمَـاتِ العَـدُوِّ فِـي حَـالِ نَبَـت السُّيُوفُ (الـمشْرفِيَّة)، أَوْ لَمْ تَتَجَاوَز السِّهَامُ الوَتَرَ.

مَقْصُودُ الشَّاعِرِ مِنْ هِذِهِ الرَّمْزِيَّةِ هُوَ أنَّ عَدَمَ الـمِـــرَاسِ عَلَى السُّيُوفِ، وعَدَمَ مِرَانِهِمْ عَلَى الرِّمَاحِ وَإِنْ كَانَتْ ثَمِينَةً، سَيُفْضِي حَتْمًا إِلَـى أَنْ يُمَـزِّقَ العَـدُوُّ دُرُوعَهُـمْ وَإِنْ كَانَتْ سَـمِيكَةً، وَبِتَمْزِيقِ الدُّرُوعِ تَتَقَطَّعُ الأَجْسَادُ إِلَى أَشْلاَءٍ، الأَمْرُ الَّذِي يَتَرَتَّـبُ عَلَيهِ سُقُوطُ الأَوْطَانِ؛ لانْتِفَاءِ الأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَذُبُّونَ عَنْ حِيَاضِ بِلاَدِهِمْ.

فَاسْـأَلْ بَلَنْسِـيَةً مَـا شَـأْنُ مُرْسِـيَةٍ وَأَيــنَ شَــاطِبَةٌ أَمْ أَيــنَ جَيَّــانُ

تَقْدِيرُ الجُمْلَةِ فِي صَدْرِ البَيْتِ: (فاسألْ أهلَ بلنسيَةَ)؛ لأنَّ الجَمَـادَ لا يُسـألُ بـلِ الذي يُختصُّ بالسُّؤالِ هو الإنسانُ، فَنَتَجَ عَنْ هَـذَا ضَـرْبٌ مِـنَ الحَـذْفِ (الــمضَاف) لِلاخْتِصَارِ وَالإِيجَازِ (الـمجَاز الـمرْسَل).

أَفْضَى الحَذْفُ هُنَا إِلَى الاتِّسَاعِ، ذَلِكَ أَنَّ ظَاهِرَ النَّصِّ يَدُلُّ عَلَى إِحَالَةِ السُّـؤالِ إلى من لا يَصِحُّ – فِي الحَقِيقَةِ – سُؤَالُهُ، أَوْ مَنْ لَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ الإِجَابَةُ، فَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يُرِيدُ تَأْكِيدَ قَوْلِهِ: إِنَّهُ حَتَّى لَـوْ سَـأَلَ الــمرْءُ الأَمْكِنَـةَ الجَامِـدَةَ (بَلَنْسِـيَةَ) وَغَيْرَهَـا مِـنْ مُكَوِّنَاتِ الـمدِينَةِ، لَأَنْبَأَتْهُ بِحَالِهَا؛ لأَنَّهَا شَهِدَتْ ذَلِكَ عِيَانًا.

ولأنَّ إِجَابَةَ البَشَرِ – الـمتَوَقَّعِ سُؤَالُهُمْ – مَعْلُومَةٌ ضِمْنًا؛ أَخْفَى الشَّاعِرُ مَا يَـدُلُّ عَلَيهِمْ لَفْظًا، ذَلِكَ أَنَّهُ يُرِيدُ كَسْرَ الـمأْلُوفِ أَوِ الـمتَوَقَّعِ، بِوسَاطَةِ تَوْجِيهِ السُّـؤَالِ إِلَـى الجَمَادِ الَّذِي لاَ يُجِيبُ، فَحَاوَلَ اسْتِنْطَاقَهُ؛ لِيُعَبِّرَ بِذَاتِهِ عَنْ حَالِهِ تَحْتَ الاحْتِلاَل.

قَوَاعِـدٌ كُـنَّ أَرْكَـانَ الـبِلاَدِ فَمَـا عَسَـى البَقَـاءُ إِذَا لَـمْ تَبْـقَ أَرْكَـانُ

الأَصْلُ فِي التَّرْكِيبِ اللُّغَوِيِّ النَّحْوِيِّ لِصَـدْرِ البَيْـتِ: (هِـيَ/ هُـنَّ قَوَاعِـدُ كُـنَّ أَرْكَانِ البِلاَدِ)، فَحَذَفَ الشَّاعِرُ الضَّمِيرَ (الـمبْتَدَأ)، وَأَبْقَى البَيْتَ مُصَدَّرًا بِالخَبَرِ.

الشَّاعِرُ فِي البَيتِ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَكَانَةِ الـمدُن (بَلَنْسِيَة، مُرْسِيَة، شَـاطِبَة، جَيَّـان، قُرْطُبَة) بِالنِّسْبَةِ لِلْأَنْدَلُس، دَلِكَ أَنَّهُنَّ كُنَّ – سَابِقَاً – الـمدُنَ الأَسَاسِيَّةَ، وَالرَّكِيزَةَ الَّتِـي تَرْتَكِزُ عَلَيهَا الأَنْدَلُسُ. وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الـمدُنُ تَسْتَأْثِرُ بَشَأْوٍ عَال، وَالآنَ تَوَارَتْ وَمَـا عَادَتْ شَيْئَاً مَذْكُورَاً – بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فَمَا عَسَى البَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ – كَـذَلِكَ أَسْـقَطَ الشَّاعِرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِنَّ لَفْظَاً (مَبْنَىً).

أَلاَ نُفُـوسٌ أَبِيَّـاتٌ لَهَـا هِمَـمٌ أَمَـا عَلَـى الخَـيرِ أَعْـوَانٌ وَأَنْصَـارُ

يَبْدُو أَنَّ الشَّاعِرَ فِي عَوْفِ سَوءٍ جَرَّاءَ مَا يَرَى فِي الأَنْدَلُس؛ لِذَلِكَ يَسْتَنْهِضُ هُنَا عَزِيمَةَ الـمسْلِمِينَ لِدَرْءِ الاحْتِلاَل، وَيَهِيبُ بِهِمْ إِلَى نَجْدَةِ إِخْوَانِهِمْ سِرَاعَاً، وَيُحَـرِّضُ هِمَمَهُمْ عَلَى مُقَاتَلَةِ الـمحْتَلِّ، الَّذِي اسْتَطَالَ عَلَى الـمسْلِمِينَ، وَعَاثَ فِي البِلاَدِ فَأَكْثَرَ فِيهَا الفَسَادَ.

جَاءَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الصَّرِيحَةُ مِنْ لَدُن الشَّاعِرِ فِـي سِيَاقِ أُسْـلُوبٍ تَحْضِيضِـيٍّ؛ لأَنَّ التَّحْضِيضَ فِيهِ نَوْعٌ مِنْ طَلَبِ الشَّيْءِ بِقُوَّةٍ مَعَ انْتِظَارٍ الحَاضِّ تَلْبِيَةَ طَلَبِهِ عَلَى وَجْهِ السُّرْعَةِ.

إِذَاً، يَبْدُو أَنَّ الشَّاعِرَ أَحَسَّ بِقِيمَةِ الوَقْتِ الَّذِي يُسَابِقُهُ، وَحَرَصَ عَلَى أَلَّا يَنْفَـدَ، وَشَعَرَ أَنَّ الـموْقِفَ لاَ يَحْتَمِلُ التَّـأخِيرَ، فَـأَرَادَ إِيصَـالَ رِسَـالَتِهِ عَلَـى وَجْـهِ السُّـرْعَةِ، فَحَذَفَ فِعْلَ التَّحْضِيضِ؛ لأَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ فِي ذِكْرِهِ الفِعْـلَ إِعَاقَـةً فِـي إِيْصَـالِ رِسَـالَتِهِ بِسُرْعَةٍ.

- **أُسْلُوبُ الالْتِفَات:**

أُسْلُوبُ الالْتِفَاتِ نَمَطٌ تَعْبِيرِيٌّ وَلَونٌ بَلاَغِيٌّ يَقْتَضِي العُدُولَ فِي اسْتِعْمَال اللُّغَةِ (الـمبْنَى) مِنَ الـمأْلُوفِ إِلَى غَيرِ الـمأْلُوفِ دُونَ إِلْحَاقِ ضَـرَرٍ بِالـمعْنَى، وَإِذَا جَـنَحَ إِلَيهِ الـمتَكَلِّمُ، فَإِنَّهُ يَبْتَغِي مِنْهُ حَمْلَ الـمخَاطَبِ عَلَى الانْتِبَاهِ إِلَى دَلاَلاَتٍ يَرْمِي إِلَيهَا.

إنَّ الـمعْنَى العَامَّ لِهَذَا الأُسْلُوبِ (الانْتِقَال مِنَ الـمأْلُوفِ إِلَى غَيْـرِ الـمأْلُوفِ) يَتَّفِقُ مَعَ الهَمِّ الَّذِي يَحْمِلُهُ الشَّـاعِرُ بَـينَ جَوَانِحِـهِ، دَلِـكَ أَنَّـهُ يُقَاسِـي بَـينَ الـمأْلُوفِ الـمعْتَادِ (اسْتِقْرَارِ الأَنْدَلُسِ)، وَغَيرِ الـمأْلُوفِ الطَّـارِئ (احْـتِلاَلِ الأَنْـدَلُسِ)، لِـذَلِكَ انْعَكَسَ هَمُّهُ عَلَى مَبْنَى لُغَتِهِ عَبْرَ اسْتِعْمَالِ أُسْلُوبِ الالْتِفَاتِ الَّـذِي لَـمْ يَـأْتِ تَجْمِيلَـاً لِمِعْصَمِ القَصِيدَةِ، وَإِنَّمَا لِدَلاَلاَتٍ يَبْتَغِيهَا الشَّاعِرُ، وَلَوْ كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ لَأَحْدَثَ بَوْنَـاً بَينَ دَلاَلَةِ الـمعْنَى الـمرَادِ وَالـمعْنَى الـمغْلُوطِ الَّذِي فُهِمَ مِنْ ظَاهِرِ الأُسْلُوبِ.

اسْتَعْمَلَ الشَّاعِرُ فِي قَصِيدَتِهِ هَذَا الأُسْلُوبَ عَبْرَ التَّنْوِيعِ فِي اسْتِعْمَالِ الضَّمَائِرِ، وَبِخَاصَّةٍ صُورَةُ الانْتِقَالِ مِنْ ضَمِيرِ الـمخَاطَبِ إِلَى ضَمِيرِ الغَيْبَةِ، إِذْ وَرَدَ فِي بَيْتَينِ اثْنَيْنِ:

يَا غَافِلاً - وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوعِظَـةٌ إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةٍ، فَالـدَّهْرُ يَقْظَـانُ

الغَافِلُ هُوَ السَّاهِي مِنْ قِلَّةِ التَّيقُّظِ، وَقَدْ نَادَاهُ الشَّاعِرُ بِحَرْفِ النِّدَاءِ (يَا)، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ نَادَاهُ الْتَفَتَ عَنْهُ مِنْ أُسْلُوبِ الخِطَابِ إِلَى الغَيْبَةِ، وَدَلاَلَةُ هَذَا الالْتِفَاتِ يُفِيـدُ مَعْنَـى عَدَمِ الاكْتِرَاثِ وَالإِعْرَاضِ، فَكَمَا أَنَّ الغَافِلَ يَغفُلُ عَمَّا حَوْلَهُ مِنْ أُمُورٍ، بَـلْ يَتَعَمَّـدُ أَنْ يَكُونَ غَائِبَاً عَنِ الـمشَاهِدِ وَلاَ يُبَالِي بِهَا، فَكَذَلِكَ عَامَلَهُ الشَّاعِرُ بِالـمثْلِ فَغَيَّبَـهُ بِاللُغَـةِ بِاسْتِعْمَالِ ضَمِيرِ الغَائِبِ، فَكَأَنَّ بِالشَّاعِرِ قَدْ شَفَنَ الغَافِلَ، وَلَمْ يُقِمْ لَهُ وَزْنَاً.

وَرَاتِـعِينَ وَرَاءَ البَحْـرِ فِـي دَعَـةٍ لَـهُمْ بِأَوطَـانِهِمْ عِـزٌّ وَسُـلْطَانُ

يَأْتِي الفِعْلُ (يَرْتَعُ) بِمَعْنَى: يَلْهُو وَيَنْعَمُ، وَقَدِ اسْتُعْمِلَ هَـذَا الـمعْنَى فِـي قَولِـهِ تَعَالَى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَـدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـافِظُونَ﴾[٢٥]. والشَّاعِرُ فِي هَذَا البَيْتِ جَاءَ بِلَفْظَةِ (رَاتِعِينَ) مُنَادَى بِـأَدَاةِ نِـدَاءٍ مَحْذُوفَـةٍ؛ ثُـمّ الْتَفَـتَ مِـنْ أُسْـلُوبِ الخِطَـابِ (النِّدَاء) إِلَى الغَيْبَةِ بِضَمِيرِ (هُمْ)، لِيُفِيدَ مَعْنَى تَوبِيخِ الرَّاتِعِينَ؛ لأَنَّهُ مَـنْ يَلْـهُ وَيَلْعَـبْ، فَلَنْ يَأْبَهَ بِمَنْ حَوْلَه، حَتَّى لَوْ هَوَى الـموْتُ نَحْوَهُ فَاغِرَاً فَاهُ؛ لأَنَّ ثَمَّةَ مـا يُشـغِلُهُ عـنْ غيرِهِ. فَالشَّاعِرُ كَأَنَّمَا الْتَفَتَ بِوَجْهِهِ إِلَى غَيْرِ وُجْهَتِهِمْ غَيْرَ آبِهٍ بِالـمسْلِمِينَ فِـي شَـمَالِ أَفْرِيقِيا؛ لِعَدَمِ اكْتِرَاثِهِمْ بِحَالِ إِخْوَانِهِمُ الأَنْدَلُسِيِّينَ.

٣. الظَّواهرُ النَّحويَّةُ:

● **التَّقديمُ والتَّأخيرُ:**

جَاءَتْ ظَاهِرَةُ التَّقديمِ وَالتَّأخِيرِ فِي تَرَاكِيبِ القصيدة؛ لِتَكُونَ مُعَـزِّزَاً آخَـرَ فِـي اللُغَةِ الشِّعريَّةِ، يَنْبضُ بِهَا النَّصُّ، وَتَمْنَحُ الأَلْفَاظَ بُرُوزَاً تَعْبِيرِيًّا، فَجَاءَت الأَلْفَاظُ مُتَأخِّرَةً عَنْ مَكَانِهَا الطَّبِيعِيِّ، وَمُتَوَافِقَةً مَعَ تَفْعِيلَةِ القَافِيَةِ، الأَمْرُ الَّذِي يَدْفَعُ عَنِ الـمتَلَقِّي رَتَابَةَ التَّرَاكِيبِ، وَيَكْسِرُ الـمأْلُوفَ فِي تَنَبُّؤِ القَارِئ لِتَرْتِيبِ الجُمْلَةِ، فَيَطْفَقُ بَاحِثَـاً عَـنْ مُـرَادِ الشَّاعِرِ مِنْ ذَلِكَ.

يُمَثِّلُ التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ "وَاحِدَاً مِنْ أَبْرَزِ مَظَاهِرِ العُدُولِ فِي التَّرْكِيـبِ اللُغَـوِيِّ؛ لِيُحَقِّقَ غَرَضَاً نَفْسِيًّا وَدَلاَلِيًّا يَقُومُ بِوَظِيفَةٍ جَمَالِيَّةٍ بِوَصْفِهِ مَلْمَحَاً أُسْلُوبِيًّا خَاصًّا، وَيَـتِمُّ عَنْ طَرِيقِ كَسْرِ العَلاَقَةِ الـمأْلُوفَةِ بَينَ الـمسْنَدِ وَالـمسْنَدِ إِلَيهِ فِي الجُمْلَـةِ لِيَضَـعَهَا فِـي سِيَاقٍ جَدِيدٍ وَعَلاَقَةٍ مُمَيَّزَةٍ"[٢٦]، إِذَاً، هُوَ ضَرْبٌ مِنَ التَّصرُّفِ فِي التَّرْكِيـبِ، وَالعُـدُولِ عَنْ أَصْلِ تَرْتِيبِ عَنَاصِرِهِ؛ لِغَايَةٍ بَيَانِيَّةٍ مَعْنَوِيَّةٍ، وَهَذَا التَّصَرُّفُ لاَ يَكُونُ عَبَثَاً لِغَيرِ عِلَّةٍ، وَإِلَّا بَاتَ تَمَادِيَاً عَلَى التَّرْكِيبِ وَمَعْنَاهُ، وَإِفْسَادَاً لِلْكَلاَمِ.

ظَاهِرَةُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ[٢٧] فِيهَا إِقْدَامٌ عَلَى مُخَالَفَةٍ لِقَرِينَةٍ مِنْ قَـرَائِنِ الـمعْنَى مِنْ غَيرِ خَشْيَةِ لَبْسٍ، اعْتِمَادَاً عَلَى قَرَائِنَ أُخَرَ، وُصُـولاً بِالعِبَـارَةِ إِلَـى دَلاَلاَتٍ وَفَوَائِـدَ يَقْتَضِيهَا الـمقَامُ.

لاَ يَتَوَقَّفُ التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ عِنْدَ مُجَرَّدِ رَدِّ الفُرُوعِ إِلَى الأُصُولِ، بَـلْ يَتَجَاوَزُهَـا إِلَى مَبَاحِثَ تَتَعَلَّقُ بِالفُرُوقِ الـمعْنَوِيَّةِ الحَاصِلَةِ عَنِ الانْتِقَالِ مِـنَ البِنْيَـةِ الأَصْـلِيَّةِ إِلَـى البِنَى الـمتَفَرِّعَةِ عَنْهَا بِوُسَاطَةِ التَّصَرُّفِ فِي رُتَبِ العَنَاصِرِ فِي اللَفْظِ، وَلَئِنْ كَانَتْ هَـذِهِ الظَّاهِرُةُ لاَ تَنَالُ مِنَ الأَدْوَارِ النَّحْوِيَّةِ الـمتَعَلِّقَةِ بِالـمحَلَّاتِ الإِعْرَابِيَّـةِ، فَـإِنَّ لَهَـا دَوْرَاً حَاسِمَاً فِي تَحْدِيدِ الـمعْنَى الحَاصِـلِ مِـنَ الجُمْلَـةِ"[٢٨]. فَـلاَ غَـرْوَ حِـينَ نَـرَى احْتِفَـاءَ الجُرْجَانِيِّ بِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ فِي قَولِهِ: "هُوَ بَابٌ كَـثِيرُ الفَوَائِـدِ، جَـمُّ الـمحَاسِنِ، وَاسِـعُ

التَّـصَرُّفِ، بَعِيدُ الغَايَةِ، لاَ يَزَالُ يَفْتَـرُّ لَكَ عَنْ بَدِيعِهِ، وَيُفْضِي لَكَ إِلَى لَطِيفِهِ، وَلاَ تَزَالُ تَرَى شِعْرَاً يَرُوقُكَ سَمْعُهُ، وَيَلْطُفُ لَـدَيكَ مَوْقِعُـهُ، ثُـمَّ تَنْظُـرُ فَتَجِـدُ سَـبَبَ أَنْ رَاقَـكَ وَلَطُفَ عِنْدَكَ أَنْ قُدِّمَ فِيهِ شَيْءٌ، وحُوِّلَ اللَفْظُ عَنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ»[٢٩].

أَمَّا شَاعِرُنَا، فَقَدْ تَمَسَّكَ بِتَلاَبيبِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، وَجَنَحَ إِلَيْهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ القَصِيدَةِ، وَيَبْدُو أَنَّ كَسْرَ العَلاَقَةِ الـمأْلُوفَةِ بَينَ الـمسْنَدِ وَالـمسْنَدِ إِلَيـهِ (العُـدُول فِـي التَّرْكِيبِ) يُتِيحُ لِلشَّاعِرِ التَّعْبِيرَ عَـنْ مَقْصُـودِهِ الـمعْنَوِيِّ بِمَنْطُوقِـهِ اللَفْظِـيِّ (التَّقْـدِيم وَالتَّأْخِير)؛ وَيُمْكِنُ التَّعْبِيرُ أَكْثَرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَولِنَا: إِنَّ الحَالَةَ الطَّبِيعِيَّـةَ الأُوْلَـى لِلْأَنْـدَلُسِ (الـمعْنَى) وَيُقَابِلُهُ الأَصْل فِي تَرْكِيبِ الجُمْلَة (الـمبْنَى)، تَغَيَّـر وَصَـارَ مَعْكُوسَـاً، فَمَـا كَانَ أَصْلاً (اسْتِقْرَار الأَنْدَلُس) صَارَ فَرْعَاً (احْتِلاَلَهَا)، وَهَكَذَا فِي تَرْكِيبِ الجُمْلَـةِ، فَمَـا كَانَ حَقُّهُ الصَّدَارَةُ بَاتَ آخِرَاً. وَإِلَيكَ بَعْضَ مَوَاطِنِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فِي القَصِيدَةِ.

أ. تَقْدِيمُ الخَبَرِ عَلَى الـمبْتَدَأِ:

لِكُـلِّ شَـيْءٍ إِذَا مَـا تَـمَّ نُقْصَـانُ فَـلاَ يُغَـرَّ بِطِيـبِ العَـيشِ إِنْسَـانُ

تَضَمَّنَ البَيتُ حِكْمَةً مُوجَزَةً بَلِيغَةً، حَمَلَتْ بَـينَ طَيَّاتِهَـا مَعْنَـىً سَـامِيَاً وَتَجْرِبَـةً إِنْسَانِيَّةً عَمِيقَةً؛ لِتَكُونَ شَاخِصَةً إِرْشَادِيَّةً تُقَدَّمُ إِلَى عُمُومِ البَشَرِيَّةِ، وَقَدْ وَظَّفَهَا الشَّـاعِرُ فِي مُسْتَهَلِّ قَصِيدَتِهِ؛ لأَنَّ أَوَّلَ مَايُبَادِهُ الإِنْسَانَ مِنَ القَصِيدَةِ أَبْيَاتُهَا الأُوَلُ؛ كَمَا أَنَّ هَذِهِ الحِكْمَةَ جَاءَتْ تَمْهِيدَاً لِلْحَدَثِ، وَمُوَطِّئَةً لِمُنَاسَبَةِ القَصِيدَةِ.

وَيُمْكِنُ عَدُّ دَيْدَنِ الشُّعَرَاءِ فِي تَقْدِيمِ الحِكَـمِ فِـي مَطَـالِعِ قَصَـائِدِهِمْ عَلَـى أَنَّـهُ صُورَةٌ مُحَاذِيَةٌ لِظَاهِرَةِ الوُقُوفِ عَلَى الأَطْلاَلِ فِي العَصْرِ الجَاهِلِي، فَكَمَا أَنَّ الـمقَدِّمَاتِ الطَّلَلِيَّةَ تُرَكِّزُ عَلَى الآثَارِ القَدِيمَةِ الَّتِي تَتْرُكُهَا الـمحْبُوبَةُ بَعْدَ الرَّحِيلِ، فَكَذَلِكَ الحِكَـمِ، فَهِيَ نَتَاجُ تَجْرِبَةٍ تَرَاكُمِيَّةٍ مُهِمَّةٍ، وَعُصَارَةُ أَحْدَاثٍ مَاضِيَةٍ، يَسْـتَأْنِسُ بِهَـا الـمَرْءُ كُلَّمَـا اسْتَدْعَتِ الحَاجَةُ.

إنَّ الحِكْمَةَ الَّتِي رَمَى إِلَيهَا الشَّاعِرُ تَشِي بِمَلْمَحٍ عَقَدِيٍّ، إِذْ تَتَجَلَّى فِي حَقِيقَةٍ مَفَادُهَا أنَّ أيَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا مَهْمَا حاول أنْ يَبْلُغَ أَسْبَابَ الكَمَال، فَلاَ بُدَّ مِنْ نَقْصٍ يَشُوبُهُ، فَيَنْبَغِي عَلَى الإِنْسَانِ أَلَّا يُخْدَعَ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا؛ لأنَّ مَصِيرَهَا الفَنَاءُ وَالزَّوَالُ[٣٠].

يُوْمِئُ الشَّاعِرُ مِنْ هَذِهِ الحِكْمَةِ إِلَى الحَالَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحُفُّ بِأَكْنَافِ الأَنْدَلُسِ، فَمِنِ اسْتِقْرَارٍ وَازْدِهَارٍ وَرَغَدٍ فِي العَيْشِ (التَّمَام نِسْبِيًّا) إِلَى دَمَارٍ وَنَهْبٍ وَسَلْبٍ (نُقْصَان مُطْلَق).

فَثُنَائِيَّةَ التَّحوُّل (مِنْ... إِلَى...) الَّتِي يُصَارِعُهَا الشَّاعِرُ، انْعَكَسَتْ عَلَى لُغَةِ البَيْتِ، فَقَدْ رَبَطَ بَيْنَ التّحوُّل الَّذِي عَاشَهُ فِي الأَنْدَلُسِ، وَالانْحِرَافِ الوَاقِعِ فِي بِنْيَةِ التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ (تَقْدِيمِ الخَبَرِ "لُكُلِّ شَيْءٍ" عَلَى الـمبْتَدَأِ "نُقْصَانٌ").

وَلاَ رَيْبَ فِي جَوَازِ مِثْلِ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ التَّقْدِيمِ عِنْدَ النُّحَاةِ، وَمُسَوِّغُ ذَلِكَ أنَّ الخَبَرَ جَاءَ شِبْهَ جُمْلَةٍ (جَارّاً وَمَجْرُوراً)، وَالـمبْتَدَأَ نَكِرَةً غَيرَ مُضَافَةٍ أَوْ مَوْصُوفَةٍ، إِلَّا أنَّ الشَّاعِرَ حِينَ وَظَّفَ هَذَا التَّقدِيمَ قَصَدَ مِنْهُ دَلاَلَةً أَرَادَهَا، فَلَمْ يَأْتِ التَّقدِيمُ اعْتِبَاطِيّاً، وَيُمْكِنُ تَصَوُّرُ البُعْدِ الدَّلاَلِيِّ لِهَذَا التَّقديمِ - فِي نَظَرِي - بِوسَاطَةِ الرَّبْطِ الدَّلاَلِيِّ بَينَ مَفْهُومِ (الحِكْمَةِ) "وَ (لِكُلِّ شيءٍ). فَالحِكْمَةُ تَصْلُحُ أنْ تَكُونَ هَادِيَةً لِعُمُومِ البَشَرِيَّةِ" دَلاَلَة اجْتِمَاعِيَّة"، وَإِذَا اتَّعظَ مِنْهَا أيُّ شَخْصٍ، فَتَكُونُ حِيْنَئِذٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ مَفْهُومِ (العُمُومِ) وَاكْتَسَبَتْ صِفَةَ الخُصُوصِ.

كَذَلِكَ الأَمْرُ فِي لَفْظَتَي "لِكُلِّ" وَ "شَيْءٍ"؛ فَفِي لَفْظَةِ "كُلِّ" فَائِدَةٌ لُغَوِيَّةٌ لَدَى النُّحَاةِ وَهِيَ العُمُومُ، وَلَفْظَةِ "شَيْءٍ" دَلاَلَةٌ عَلَى الخُصُوصِ؛ لأنَّ الشَّاعِرَ قَصَدَ فِي بَاطِنِهَا الأَنْدَلُسَ - هَاجِس الشَّاعِرِ - فَهِيَ شَيْءٌ مِنَ الأَشْيَاءِ الـمتَغَيِّرَةِ.

كَمَا نَجِدُ فِي الحِكْمَةِ قُوَّةَ تَأْثِيرٍ وَثَبَاتاً مَدَى الحَيَاةِ، وَهَذَا مَا نَجِدُهُ فِي تَوْظِيفِ الجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ "لِكُلِّ شَيْء نُقْصَانٌ" الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ وَالاسْتِقْرَارِ.

وَثمَّةَ سَبَبٌ نَحْوِيٌّ لِلتَّقدِيمِ؛ وَهُوَ مَخَافَة حُدُوثِ اللَبسِ بَينَ الخَبَرِ وَالصِّفَةِ، فَلَوْ أنَّ الشَّاعِرَ قَدَّمَ الـمبْتَدَأَ (نُقْصَانُ)، لفُهِـمَ مِـنْ دَلِـكَ أنَّ (لِكُـلِّ شَـيْءٍ) جَـاءَتْ صِـفَةً لِلْمُبْتَدَأِ، فَجَاءَ هَذَا التَّقدِيمُ تَنبيهَاً وَدَفْعَاً لِلتَّوهُّمِ، فَالخَبَرُ أَقْوَى فِي دَلاَلَتِهِ مِنَ الصِّفَةِ.

أمَّا حَالاَتُ اسْتِعْمَالِ كَلِمَةِ "نُقْصَان"، فَيُمْكِن التَّرْكِيزُ عَلَيهَا مِنْ أَرْبَعَةِ جَوَانِبَ:

- أنَّ فِي تَأْخِيرِهَا حِفْظَاً لِتَرْتِيبِ مَدْلُولاَتِ الأَلْفَـاظِ؛ لأنَّ التَّرتيـبَ الطَّبيعـيَّ أنْ يَـأتيَ النَّقْصُ بَعْدَ التَّمَامِ.
- أنَّ الشَّاعِرَ رَاعَ إِلَى مَا يُسَمِّيهِ العَرُوضِيُّونَ بِـ (التَّصْرِيع)، إِذْ تَجَانَسَ عَرُوضُ البَيْتِ "صَان" مَعَ الضَّرَبِ "سَان"، وَهَذَا أضْفَى جَمَالاً مُوسِيقِيَّاً إِضَـافِيَّاً عَلَـى البَيـتِ، وَشَـدَّ انْتِبَاهَ السَّامِعِ، وَشَنَّفَ آذَانَهُ لِمَا تُوحِي إِلَيهِ اللَفْظَةُ مِنْ دَلاَلاَتٍ؛ لأنَّ الشَّاعِرَ يَتَنَاوَلُ حِكْمَةً يُرِيدُ مِنَ البَشَرِ جَمِيعِهُمُ الإِصْغَاءَ إِلَيهَا.
- أنَّ سِيَاقَ البَيْتِ فِيهِ دَلاَلَةٌ عَلَى الـمبَالَغَةِ وَالتَّكْثِيرِ، فَالـمقَامُ فِي مَأْرَبٍ إِلَـى مَصْـدَرٍ دَالٍّ عَلَى الـمبَالَغَةِ؛ لِذَلِكَ مَالَ الشَّاعِرُ إِلَى تَوْظِيفِ الـمصْدَرِ (نقصانُ).
- أنَّ فِي اخْـتِيَارِ لَفْظَةِ "نُقْصَـان" عَرُوضـاً لِصَـدْرِ البَيـتِ أَمَـارَاتٍ يُمْـكِنُ أنْ تُسْـتَنتجَ بِوسَاطَةِ الـرَّبطِ الدَّلالِيِّ بَينَ (نُقْصَان و إِنْسَـان): فَمِـنَ الـمعْلُومِ أَنَّ لَفْظَـةَ "إِنْسَـان" مُشْتَقَّةٌ مِنَ الأُنسِ نَقِيضِ الوَحْشَةِ، وَالشَّاعِرُ حِينَ وَظَّفَ هَذِهِ اللَفْظَةَ أَرادَ أنْ يُوصِلَ إِلينَا مَعْنَىً قَصَدَهُ؛ وَهُوَ أَنَّ الـمُدُنَ الأَنْدَلُسِيَّةَ بَاتَتْ مُوحِشَةً وَخَاوِيةً عَلى عُرُوشِهَا، والأُنسَ الَّذِي كَانَتِ تَعِيشُ بَينَ جَنَبَاتِهِ وَتَنْعَمُ بِهِ تَوَارَى بِحِجَابِ الاحْتِلاَل.

وَلِلْحَـوَادِثِ سُـلْوَانٌ يُسَهِّـلُهَا ... وَمَـا لِمَـا حَـلَّ بِالإِسـلامِ سُـلْوَانُ
تِلْكَ الـمصِيبَةُ أَنْسَـتْ مَـا تَقَـدَّمَهَا ... وَمَا لَهَا مَـعَ طُـولِ الدَّهْـرِ نِسْـيَان

اشْتَمَل البَيْتُ عَلَى ثَلاَثَةِ شَوَاهِدَ لِلتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ؛ الأَوَّل: تَقْـدِيم الخَبَـر (شِـبْه الجُمْلَة/ لِلْحَوَادِث) عَلَى الـمبْتَدَأِ (سُلْوَان). الثَّانِي: تَقدِيم الخَبَر (شِبْه الجُمْلَـة/ لِمَـا)

عَلَى الـمبْتَدَأ (سُـلْوَان). الثَّالِـث: تَقْـدِيم الخَبَـر (شِـبْه الجُمْلَـة/ لَهَـا) عَلَـى الـمبْتَدَأ (نِسْيَان)، وَقَدْ قَصَدَ الشَّاعِرُ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ التَّرْكِيزَ عَلَى الفَجِيعَةِ الَّتِي أَلَـمَّتْ بِهِ؛ وَلِأَنَّ فَجِيعَةَ احْتِلاَل الأَنْدَلُسِ جَبَّتْ مَا قَبْلَهَا، فَقَدْ أَلْقَتْ بِظِلاَلِهَا عَلَى نَفْسِيَّةِ الشَّـاعِرِ، وَنَالَتْ صَدَارَةً فِي فِكْرِهِ، وَأَوْلَوِيَّةً فِي عَوَاطِفِهِ، فَلاَ غَرَابَةَ حِينَ يُقـدِّمُ مَـا يَشْـغَلُ بَالَـهُ، وَيَقُضُّ مَضْجَعَهُ (وَطَنَهُ)، وَكَمَا يُقَالُ: مَكَامِنُ القَلْبِ تُظْهِرُهَا عَثَرَاتُ اللِسَان.

وَالبَيْتَان يَتَشَابَهَان مَعْنَـىً فِـي عَـدَمِ اقْتِـرَانِ السُّـلْوَانِ بِمُصِـيبَةِ الاحْـتِلاَل الَّتِـي اعْتَوَرَتِ الأَنْدَلُسَ، وَاسْتَعْمَلَ الشَّاعِرُ حَرْفَ النَّفْيِ؛ لِزِيَادَةِ التَّوكِيدِ فِي الـمعْنَى، فَنَفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ قَصْرَ نَفْي وُجُودِ السُّلْوَانِ عَلَى مُصِيبَتِهِ وَحْـدَهَا، وَإِثْبَـاتِ وُجُـودِهِ فِـي غَيْـرِ مُصِيبَتِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوِّ التَّشَاؤُمِ الَّذِي يَلُـفُّ الشَّـاعِرَ. وَهَـذَا الأُسْـلُوبُ مُشَـابِهٌ لِبَيْتٍ شِعْرِيٍّ فِـي سِينِيَّةِ عِمَاد الدِّين الأَصْفَهَانِي[٣١]:

أَرَى حدثَانِ الدَّهْرِ يُنْسَى حَدِيثُهُ وَأَمَّا حَدِيْثُ الغَدْرِ مِنْكُمْ فَلَاْ يُنْسَى (الطَّوِيْل)

وَلِأَنَّ الرُّنْدِيَّ – كَغَيْرِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ – يَنْقَادُ خَلْفَ الرَّوِيِّ الَّذي ارْتَضَـاهُ لِأَبْيَـاتِ قَصِيدَتِهِ، وَيَحْنِي صَدْرَهُ لَهُ بِوَصْفِهِ شَرْطاً مِنْ شُـرُوطِ بِنَـاءِ القَصِـيدَةِ، فَقَـدْ لَـجَأَ إِلَـى أَنْمَاطِ التَّقدِيمِ وَالتَّأخِيرِ؛ تَلْبِيَةً لِإِلْحَاحِ الرَّوِيِّ، وَمُسَايَرَةً لَهُ، ذَلِكَ أَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّـأْخِيرَ سَاعَدَهُ فِي أَنْ يَبْقَى مُحَافِظاً عَلَى الرَّوِيِّ، وَهَذَا يَنْخَلِـعُ عَلَـى بَـاقِي الأَبْيَـاتِ اللَـوَاتِي انْتَهَى فِيهَا العَجُزُ بِتَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ.

فَجَـائِعُ الـدَّهْرِ أَنْـوَاعٌ مُنَـوَّعَةٌ وَلِلـزَّمَانِ مَسَـرَّاتٌ وَأَحْـزَانُ

قِيلَ سَابِقاً: إِنَّ الشَّاعِرَ يُعَانِي مِنْ عَامِلِ الدَّهْرِ الَّـذِي عَضَّـهُ بِنَابِـهِ، وَهَـذا يَظهَـرُ جَلِيًّا فِي القَصِيدَةِ مِنْ أَلِفِهَا إِلَى يَائِهَا، فَصَوَّرَهُ بِآلَةٍ تُمَارِسُ الخَـرَابَ وَالـدَّمَارَ، وَتُشَـوِّهُ مَعَالِـمَ الحَضَارَةِ الإِنْسَانِيَّةِ.

وَلِأَنَّ شَبَحَ هَذَا العَامِلِ لاَ يُفَارِقُهُ، فَقَدْ قدَّمَهُ فِي مُسْتَهَلِّ جُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ دَالَّةٍ عَلَـى

الثُّبوتِ وَالاسْتِقْرَارِ؛ لِيُضْفِيَ عَلَيهِ - أَيْضَـاً - صِـفَةً ثَابِتَـةً تَجْمَـعُ مُتَنَاقِضَـينِ: الفَـرَحَ، وَالتَّرحَ.

أَمَّا اللَطِيفَةُ البَلاَغِيَّةُ مِنْ تَقْدِيمِ الخَبَرِ، وَتَأْخِيرِ الـمبْتَدَأِ وَمَعْطُوفِـهِ، فَتَعُـودُ إِلَـى قَصْرِ الـمسَرَّاتِ وَالأَحْزَانِ عَلَى الزَّمَانِ؛ لأَنَّهُمَا جُزْءٌ مِنْهُ.

حَيـثُ الـمسَاجِدُ قَـدْ صَـارَتْ فِيهِـنَّ إِلا نَوَاقِـيسٌ وَصُـلْبَانُ

لَمْ يَقْتَصِرِ الـمحْتَلُّ عَلَى احْتِلاَلِ أَرْضِ الأَنْدَلُسِ فَحَسْبُ، بَلْ تَعَدَّى ذَلِكَ إِلَـى الـمقدَّسَاتِ الدِّينيَّةِ، إِذْ حَوَّلَهَا إِلَى أَمَاكِنَ لِدِيَانَتِهِمْ.

وَلِقوَّةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ العَقَدِيَّةِ الَّتِي تَقُـضُّ مَضْـجَعَ الشَـاعِرِ، أَوْجَـدَ الشَّـاعِرُ لَهَـا طَرِيقَينِ مِنْ طُرُقِ القَصْرِ البَلاَغِيِّ وَهُمَا: التَّقدِيمُ وَالتَّأخِيرُ (فِيهِنَّ نَـوَاقِيس وَصُـلْبَان)، وَالاسْتِثْنَاءُ الـمفَرَّغُ، وَدَانِكَ بُرْهَانَانِ أَسْـعَفَا الشَّـاعِرَ فِـي تَأْكِيـدِ الـمعْنَى الَّـذِي أَرَادَهُ (التَّخْصِيص وَالحَصْر)، فَالخَبَرُ (فِيهِنَّ) مَقْصُورٌ عَلَيـهِ، وَالـمبْتَدَأُ وَمَعْطُوفُـهُ (نَـوَاقِيس وَصُلْبَان) مَقْصُورٌ، فَنَفَى وُجُودَ النَّوَاقِيسِ وَالصُّلْبَانِ فِي أَيِّ مَكَـانٍ، وَأَثْبَتَـهُ لِلْمَسَـاجِدِ فَقَطْ، وَهَذَا الـمعْنَى فِيهِ إِثَارَةٌ لِمَشَاعِرِ الـمسْلِمِينَ، وَتَهْيِيجُهُمْ لاسْتِرْدَادِ مَـا ضَـاعَ مِـنَ الأَنْدَلُسِ، وَمُقَدَّسَاتِهِمُ الإِسْلاَمِيَّةِ.

عَلَـى دِيَـارٍ مِـنَ الإِسْـلامِ خَالِيَـةٍ قَدْ أَقْفَـرَتْ وَلَهَـا بِـالْكُفْرِ عُمْـرَانُ

وَرَاتِعِـينَ وَرَاءَ البَحْـرِ فِـي دَعَـةٍ لَهُـمْ بِأَوطَـانِهِمْ عِـزٌّ وَسُـلْطَانُ

أَفَادَ التَّقدِيمُ والتَّأخِيرُ فِي البَيْتَينِ مَعْنَى التَّخْصِيصِ وَالقَصْرِ، فَفِي البَيـتِ الأَوَّلِ قَصَرَ الشَّاعِرُ عِمَارةَ أَرْضِ الأَنْدَلُسِ عَلَى الكُفرِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ شَرْعَ الإِسْلاَمِ - الَّـذِي كَانَ سَيِّدَاً فِيهَا، وَيُحْكمُ بِهِ وَيُقامُ العَدْلُ بِوُسَاطَتِهِ - تَوَارَى.

وَفِي البَيتِ الثَّانِي قَصَرَ الشَّاعِرُ العِزَّةَ وَالسُّلْطَانَ عَلَى دِيَارِ الـمسْلِمِينَ الـمجَاورَةِ الرَّاتِعَةِ خَلْفَ البِحَارِ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يَـخُوضُوا بَعْدُ تَـجْرِبَةَ الاحْـتِلاَلِ، وَلَـمْ يَتَجَرَّعُـوا ذُلَّ الهَزِيمَةِ، أَمَّا الأَنْدَلُسُ، فَخَاضَتْ هَذِهِ التَّجْرِبَةَ الأَلِيمَةَ، وَتَجَرَّعَتْ مَرَارَةَ الحَيفِ والطُّغْيَانِ.

ب. تَقْدِيمُ الـمفْعُولِ بِهِ عَلَى الفَاعِلِ:

يَقُولُ سِيبَوَيهِ فِي هَذَا الصَّدَدِ: "فَإِنْ قَـدَّمْتَ الـمفْعُولَ وَأَخَّـرْتَ الفَاعِـلَ جَـرَى اللَفْظُ كَمَا جَرَى فِي الأَوَّل وَذَلِكَ كَقَولِكَ: ضَرَبَ زَيْدَاً عَبْدُ اللهِ... وَهُـوَ عَرَبِـيٌّ جَيِّـدٌ كَثِيرٌ، كَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُقَدِّمُونَ الَّذِي بِبَيَانِهِ أَهَمّ لَهُمْ، وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى"(٣٢).

وَرَدَ هَذَا النَّمَطُ فِي قَصِيدَةِ الرُّنْدِي أَرْبَعَ مَرَّاتٍ:

دَهَـى الجَزِيـرَةَ أَمْـرٌ لا عَـزَاءَ لَـهُ هَـــوَى لَـهُ أُحُـدٌ وَانْـهَدَّ ثَهْـلانُ

لَمَّا اسْتَعْمَلَ الشَّاعِرُ لَفْظَةَ (الجَزِيرَة)، أَوْحَى بِهَا أَنَّ مَا زَلْزَلَ الأَنْـدَلُسَ انْعَكَـسَ ظِلالُهُ عَلَى سَائِرِ الأَمْصَارِ الإِسْلاَمِيَّةِ قَاطِبَةً، وَهَذَا فِي مَعْنَاهُ البَاطِنِ يُنْبِئُ بِأَنَّ الإِسْـلاَمَ بَدَأَ يَنْكَصُ مِنْ حَيْثُ أَتَى، فَكَأَنَّ احْتِلاَلَ الأَنْدَلُسِ - فِي نَظَـرِ الشَّـاعِرِ - كَـانَ بِمَثَابَـةِ احْتِلاَلٍ لِلْبُلْدَانِ الإِسْلاَمِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ كَافَّةً.

وَثَمَّةَ لَطِيفَةٌ أُخْرَى تُسْتَنْبَطُ مِنْ مُجَاوَرَةِ الـمفْعُولِ بِهِ (الجَزِيرَة) لِلْفِعْلِ (دَهَـى)، فَالفِعْلُ (دَهَى) يَعْنِي إِصَابَةَ الشَّيْءِ بَغْتَةً، وَيَبْدُو أَنَّ الشَّاعِرَ أَفْضَـى مِـنْ ذَلِـكَ إِلَـى أَنَّ الاحْتِلاَلَ هَاجَمَ الأَنْدَلُسَ بَغْتَةً دُونَ سَابِقِ إِنْذَارٍ، فَلَمْ يَجِدُوا حَوَاجِزَ تَكْبَحُ جِمَـاحَهُمْ، كَذَلِكَ لَمْ يَفْصِلِ الشَّاعِرُ بَينَ الفِعْلِ (دَهَى) وَالـمفْعُولِ بِهِ (الجَزِيرَة) بِحَاجِزٍ.

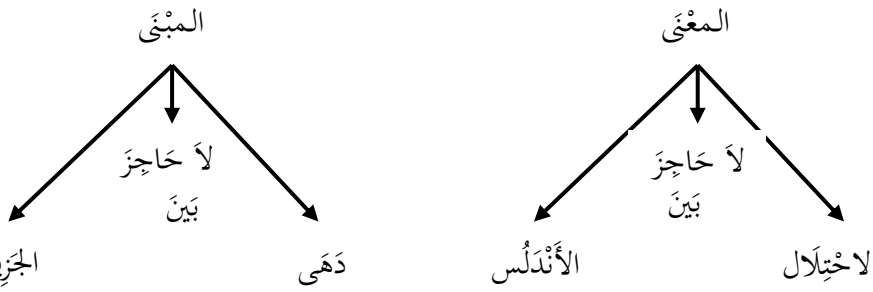

وَمَاشِـيَاً مَرِحَـاً يُـلْهِيهِ مَوطِـنُهُ أَبَعْدَ حِمْصٍ تَغُرُّ الـمرْءَ أَوْطَـانُ؟

أصْلُ التَّركيبِ النَّحْويِّ فِي عَجُزِ البَيتِ الشِّعْريِّ: (تَغُرُّ أَوْطَانٌ الـمرْءَ)، لَكِنَّ الشَّاعِرَ قدَّمَ الـمفْعُولَ بِهِ "الـمرْء" عَلَى الفَاعِلِ "أَوْطَان"، وَالدَّلاَلَـةُ الَّتِـي تَمَخَّضَـتْ عَـنِ التَّقْديمِ والتَّأخِيرِ تَفِيْءُ إِلَى:

- مُرَاعَاةِ (الرَّوِيّ).

- اهْتِمَامِ الشَّاعِرَ بِـ (الـمرْء)؛ لأنَّ الخِطَابَ مُوَجَّهٌ إِلَيهِ فِـي البَيـتِ، فَاسْتَشْـهَدَ بِحَـالِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَمْشِي مَرَحاً مُخْتَالاً فِي مَوْطِنِهِ كَيفَمَا شَاءَ، فَيَعِيشُ فِي رَغَـدِ العَـيشِ غَيرَ آبِهٍ بِمَا يَدُورُ فِي البِلاَدِ الـمجَاورَةِ لَـهُ، فَالشَّـاعِرُ أَرَادَ أَنْ يُقـدِّمَ لِهَـذَا الإِنْسَـانِ شَاهِدَاً عَلَى طِيبِ العَيشِ؛ لِيَعْتَبِرَ مِنْهُ، ثُمَّ جَـاءَ عَلَـى ذِكْـرِ مَدِينَـةِ (حِمْـص) الَّتِـي انْقَلَبَ حَالُهَا إِلَى غَيرِ عَوْدَةٍ؛ لِتَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَذَكَّرَ.

كَأَنَّمَا الصَّعْبُ لَمْ يَسهُلْ لَهُ سَبَبُ يَـومَاً وَلا مَلَـكَ الـدُّنيَا سُـلَيمَانُ

إنَّ فِي تَقْدِيمِ الـمفْعُولِ بِهِ (الدُّنْيَا) وَتَأْخِيرِ الفَاعِلِ (سُلَيْمَان) إِشَارَاتٍ إِلى مَا يَلِي:

- قدَّمَ الشَّاعرُ (الدُّنْيَا)؛ لِغَرَضِ التَّحْقِيرِ، ذَلِكَ أَنَّهَا دَارُ مَهَانَةٍ وَمَتَاعِ الغُرُورِ.

- لِلَفْظَةِ (سُلَيمَان) دَلاَلَةٌ عَلَى الآخِرةِ؛ لأَنَّهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا الَّذِي هُوَ خَيرٌ (الآخِرَة) بِالَّذِي هُوَ أَدْنَى (الـدُّنْيَا)، فَالحَيَـاةُ الآخِـرَةُ دَارُ عِـزَّةٍ وَرِفْعَـةٍ وَعَظَمَـةٍ، لاَ يُلقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ.

- حِفْظ تَرْتِيبِ الـمَدْلُولاَتِ؛ لأنَّ الدُّنْيَا بِدَايَةُ الحَيَاةِ تَسْبِقُ الآخِرَة الَّتِي ادَّخَرَهَا سُلَيمَانُ.

وَهَكَذَا نَرَى أنَّ التَّقدِيمَ وَالتَّأخِيرَ سَمَحَ لِلشَّاعِرِ أنْ يَتَحَرَّكَ بِحُرِّيَّةٍ، فَيَصْطَفِي مِنَ التَّراكِيبِ الـمحْتَمَلَةِ مَا يَمْنَحُ مَوْضِعَهُ الفِكْرِيَّ وَالوجْدَانيَّ خُصُوصِيَّتَهُ وتفرُّدَهُ[٣٣].

يَـا مَـنْ لِذِلَّـةِ قَـومٍ بَعْـدَ عِزِّهِـمُ أَحَـالَ حَالَـهُمُ كُفْـرٌ وَطُـغْيَان

هُنَا عَمَدَ الشَّاعِرُ إِلَى تَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأخِيرُ رتبةً؛ طَلَبَاً لإِظْهَارِ تَرْتِيبِ الـمعَانِي

فِي النَّفسِ، وَالعِنَايَةِ وَالاهْتِمَامِ، فَالشَّاعِرُ لَيسَ مُهْتَمًّا بِالفَاعِلِ (الكُفْر وَالطُّغْيَان) - لأنَّهُ أَمْرٌ اعْتَادَ عَلَيهِ وَمِنَ البَدَاهَةِ أنْ يَكُونَا مَغَبَّةَ الاحْتِلاَل - بِقَدرِ اهْتِمَامِهِ بِالـمفْعُولِ بِهِ (الحَالَ) الَّذِي كُلَّمَا حَزَبَ الشَّاعِرَ اسْتَذْكَرَهُ، فَهُوَ فِي مَعْرِضِ اسْتِغَاثَةٍ؛ لِـذَلِكَ تَعَجَّـلَ بِالحَدِيثِ عَنِ الحَال؛ مُحَاوَلَةً مِنْهُ فِي تَرْقِيقِ قُلُوبِ النَّـاسِ عَلَـى حَـالِ أَهْـلِ الأَنْـدَلُسِ بَوَقْتٍ أَسْرَعَ، فَبَيَّنَ حَالَهُمْ بِالأَذِلَّاءِ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ بَعْدَ أنْ كَانُوا أَعِـزَّاءَ.

- **الخُرُوجُ عَنْ قَوَاعِدِ النَّحْوِ:**

وَقَفَ فَيْضٌ مِنَ الدَّارِسِينَ عَلَـى الشَّـوَاهِدِ الشِّـعْرِيَّةِ الَّتِـي نَـدَّتْ عَـنِ القَوَاعِـدِ الـمعْيَارِيَّةِ، فَابْتَدَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَدِّ هَذَا الخُرُوجِ مِنْ بَابِ الضَّرُورَةِ الشِّـعْرِيَّةِ دُونَ سَـبْرِ غَوْرِهَا دَلاَلِيًّا، وَمِنْهُمْ مَنْ نَعَتَهُ بِالتَّسَوُّرِ عَلَى مِحْرَابِ اللُّغَـةِ وَالقَسْـوَةِ عَلَيهَـا وَانْتِهَـاكِ أَعْرَافِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ - كَمَا رَأَى الـمبَرِّدُ وَابْنُ فَارِسٍ مِنْ قَبْلُ - أَنَّ الشَّـاعِرَ لَـيْسَ نَبِيًّا مَعْصُومًا عَنِ الخَطَأ، بَلْ هُوَ بَشَرٌ يُخْطِئ وَيُصِيبُ.

وَأَرَى أنَّ بَعْضَ الشُّعَرَاءِ حِينَ يَنْحَرِفُونَ عَنْ قَوَاعِدِ النَّحْوِ الَّتِي وَضَعَهَا النُّحَـاةُ، لاَ تَكُونُ الضَّرُورةُ الشِّعْرِيَّةُ وحدَها - بِالضَّـرُورَةِ - السَّـبَبَ فِي الانْحِـرَافِ، فَالشَّـاعِرُ يَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ أَنَّهُ انْحَرَفَ؛ لأَنَّهُ لَيسَ فِي حَالَةِ هَـذَيَان، وَلاَ يَتَخَـبَّطُ خَـبْطَ عَشْـوَاءَ، وَلَيسَ أَعْجَمِيًّا دَخِيلاً عَلَى لُغَتِهِ، أَوْ يَرْصفُ الـمبَانِي دُونَ دِرَايـةٍ بِالـمعَانِي، أَوْ يُلْقِـي الكَلاَمَ عَلَى رُسَيْلاَتِهِ - فَمَثَلاً الشَّاعِرِ الجَاهِلِيّ زُهَير بْن أَبِي سُلْمَى كَانَ يَجْلِـسُ حَوْلَـاً كَامِلاً مُنقِّحَا قَصَائِدَهُ - وَلَكِنَّهُ يُعَبِّرُ عَمَّا يَدُورُ فِي خَلَدِهِ بِلُغَتِهِ.

وَلَنَا فِي الشَّوَاهِدِ اللُّغَوِيَّةِ الّتِي طَفَحَتْ عَنْ حَيِّزِ حُدُودِ القَاعِدَةِ الـمعْيَارِيَّةِ عِدَّةُ رُؤًى:

١- ثَمَّةَ قُصُورٌ فِي القَوَاعِدِ الـمعْيَارِيَّةِ؛ مِمَّـا تَرَتَّـبَ عَلَـى ذَلِـكَ ظُهُـورُ عَدِيـدٍ مِـنَ الشَّوَاهِدِ الخَارِجَةِ عَنِ صَارِمِ الـمعْيَارِ القَاعِدِيِّ.

٢- الشَّوَاهِدُ اللُّغَوِيَّةُ انْحَدَرتْ مِنْ لَهَجَاتٍ لَمْ تَشْفَعْ لَهَا فَصَـاحَتُهَا الـدُّخُولَ ضِـمْنَ

الـمعَايير وَالضَّوَابِطِ الَّتِي اخْتَطَّهَا النُّحَاةُ إبّانَ التَّقْعِيدِ، فَالخَطَأ لَيْس ذَنْبَ الشَّاهِدِ، إنَّمَا مِنِ اسْتِبْعَادِ اللَهْجَةِ الـمنْتَمِي إلَيهَا الشَّاهِدُ مِنْ دَائِرَةِ مَعَايِيرِ التَّقْعِيدِ.

٣- قَدْ يَقْصِدُ الشَّاعِرُ نُكْتَةً بَلاَغِيَّةً دَلاَلِيَّةً أُسْلُوبِيَّةً حِينَ يَزِيغُ حَقًّا عَنْ سُنَنِ القَوَاعِدِ.

أَمَّا شَاعِرُنَا الرُّنديُّ فَلَمْ يَكُنْ بِمَنْأَىً عَنْ هَذَا الانْحِرَافِ، فَفِي مِسَاحَةِ قَصِيدَتِهِ مَوَاطِنُ مُتناثرةٌ للانْحِرَافِ عنْ قَوَاعِدِ النَّحْوِ، وَيَبْدُو أَنَّ الشَاعِرَ أَرَادَ التَّحَرُّرَ مِنْ إحْرَامِ القُيُودِ الـمعْيَارِيَّةِ، وَالتَّمَتُّعَ بِالأَلْفَاظِ وَالتَّرَاكِيبِ وَالأَسَالِيبِ الَّتِي يَرَاهَا مُعَبِّرَةً عَنْ نَفْسِهِ، فَالحَالُ الَّذِي تَعِيشُهُ الأَنْدَلُسُ لاَ يَنْتَظِرُ الـمعْيَارِيَّةَ وَالـمثَالِيَّةَ اللُغَوِيَّـةَ؛ لأنَّ الحَـالَ الآنَ اسْتِثْنَائِيٌّ، وَيَنْبَغِي التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِكُلِّ مَا تَحْتَمِلُهُ اللُغَةُ، وَبِمَا يَرْغَـبُ الشَّـاعِرُ قَوْلَـهُ عَنْـهُ؛ فَلُغَةُ الشِّعْرِ تُعْمَدُ إلَى مُفَارَقَةِ النَّسَقِ الـمُعْتَادِ؛ لأنَّ ذَلِكَ مَنَاطُ جَـمَالِيَّتِهَا، فَالـمَأْلُوفُ مِنَ القَوْلِ لاَ يُثِيرُ فِـي الـمُتَلَقِّي أَيَّ إحْسَاسٍ؛ لأنَّهُ يَـجْرِي حَسْبَ الإلْفِ وَالعَادَةِ، أَمّـا الانْـحِرَافُ وَالعُدُولُ عَنِ الـمُعْتَادِ، فَهُوَ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ لِـهَزِّ يَقَظَةِ الـمُتَلَقِّي»[٣٤].

صَرْف مَا لاَ يَنْصَرِفُ

وَيَنْـتَضِي كُلُّ سَـيفٍ لِلْـفَنَاءِ وَلَـو ... كَانَ ابْنُ ذِي يَزن، وَالغِمْدُ غُمْـدَان

أَينَ الـملوكُ دَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ ... وَأَيـنَ مِـنْهُمْ أَكَـالِـيلٌ وَتِـيجَانُ؟

الشَّاهِدُ فِي البَيتِ الأوَّلِ لَفْظَة (يَزَن)، وَهُوَ عَلَمٌ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرفِ؛ لأنَّهُ جَـاءَ عَلَى هَيْئَةِ الفِعْلِ الـمضَارِعِ. أَمَا الشَّاهِدُ فِي البَيتِ الثَّانِي فَهِـيَ لَفْظَـةُ (أَكَالِيـلٌ)، وَهُـوَ اسْمٌ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّـرْفِ؛ لأنَّهُ جَاءَ عَلَى صِيغَةِ مُنْتَهَى الجُمُوعِ (أَفَاعِيل). لَكِنَّ الشَّاعِرَ عَلَى الرَّغمِ مِنْ مُسَوِّغَاتِ مَنْعِ الصَّرْفِ فِي اللَفْظَتَينِ إلَّا أَنَّهُ تَرَكَهُمَا طَلِيقَتَـيْنِ فَنَوَّنَهُمَـا، وَيُمْكِنُ الوُقُوفُ عَلَى أَبْعَادِ هَذَا الانْحِرَافِ بِمَا يَلِي:

- الضَّرُورَة الشِّعْرِيَّة؛ بُغْيَةَ إقَامَةِ الوَزْنِ.
- قِيمَة نَحْوِيَّة: التَّنكِير الَّذِي أَفَادَهُ التَّنوِينُ.

- قِيمَة دَلاَلِيَّة: إذْ إنَّ فِي البَيْتَين تَنَاوُلاً لِقَضِيَّةٍ مَفْصِلِيَّةٍ هَامَّـةٍ تَـدُورُ فِـي فَلَـكِ حَقِيقَـةِ الفَنَاءِ (الـمَوت) الَّذِي تَتَكَسَّرُ أَمَامَهُ كُلُّ الثَّوَابِتِ، وَمِنْ هَذِهِ الثَّوابِتِ حُكْمُ الـملُوكِ لِبِلاَدِهِمْ، الَّذِين أَدرَكَهُـمُ الـموتُ وَإِنْ كَـانُوا فِي صَيَاصِـيهِمْ، فَحَـالَ بَيـنَهُمْ وَبَـينَ مُلْكِهِمْ وَمَا رَافَقَهُ مِنْ لَوَازِمِ الـملْكِيَّةِ (التِّيجانِ وَالأكَالِيلِ)، وَمِـنْ هَـؤُلاَءِ الـملُوكِ الـملِكُ اليَمَنِيُّ سَيفُ بْن ذي يَزِنَ الَّذِي قَضَى نَحْبَهُ بَعْدَ أنْ قَتَلَهُ خَدَمُـهُ الأَحْبَـاشُ فِي قَصْرِ (غُمْدَان) فِي اليمَنِ.

وَالتَّنوِينُ الَّذِي اسْتَجْلَبَهُ الشَّاعِرُ دَلَّ عَلَى أنَّ الحَرَكَةَ الإِعْرَابِيَّةَ الثَّابِتَـةَ - كَغَيرِهَـا مِنَ الثَّوَابِتِ - فِي بَابِ الـممْنُوعِ مِنَ الصَّرفِ - عَـدَم التَّنْـوِينِ - خَضَـعَتْ لِسُـلْطَانِ الـموْتِ، فَعَادَتْ إلى سِيرَتِهَا الأُوْلَى (التَّنْوِين/ الأَصْل)؛ لِتُشَابِهَ عَوْدَة أَجْسَادِ الـملُوكِ إِلَى التُّرَابِ/ الأَصْل، إِذْ دَلَّلَ الشَّاعِرُ عَلَى الـمعْنَى (عَوْدَة الـملُوكِ إِلَى أَصْلِهِمْ وَمِنْهُمْ ابْنُ ذِي يَزَنَ) بِالـمبْنَى الـمرْتَبِطِ بِهِ (عَوْدَة حَرَكَةِ "الـممْنُوعِ مِنَ الصَّرْفِ" إِلَى أَصْلِهَا فِي كَلِمَةِ "يَزَن"، وَ "أَكَالِيل").

قَوَاعِدٌ كُـنَّ أَرْكَـانَ الـبِلادِ فَـمَا عَسَى البَقَاءُ إذَا لَـمْ تَبْـقَ أَرْكَـانُ؟

يُمْكِنُ اسْتِنْبَاطُ غَايَةِ الشَّاعِرِ مِنْ صَرْفِ كَلِمَةِ (قَوَاعِـد) فِـي البَيْـتِ عَبْـرَ الـرَّبْطِ الدَّلاَلِيِّ بَينَ كَلِمَةِ (قَوَاعِد)، وَحَرَكَةِ الـممْنُوعِ مِنَ الصَّرْفِ بِمَا يَلِي:

	الأَصْل/ الـماضِي	الفَرْع/ الحَاضِر
قَوَاعِد	(قُرْطُبَة وَبلنسِيَة وَحِيَّان وَشَـاطِبَة وَحِمْص وَمُرْسِيَة) مُدُنٌ أَنْدَلُسِـيَّةٌ كُنَّ وَاحِهَةً أَسَاسِيَّةً وَصُورَةً ثَابِتَـةً لِلْأَنْـدَلُسِ بِكُـلِّ جَوَانِبِهَـا الـمخْتَلِفَةِ.	سَقَطَتْ هَذِهِ الوَاحِهَةُ مَـعَ الاحْـتِلاَل، وَعَـدَتْ عَلَيهَـا العَـوَادِي، فَفَقَـدَتْ خَصَائِصَـهَا وَمَزَايَاهَـا وَمَعَالـمهَا، وَأَصْبَحَتْ عَافِيَاتٍ دَوَارِسَ.

	الأَصْل/ الـماضِي	الفَرْع/ الحَاضِر
الضَّمّ	حَرَكَةٌ ثَابِتَةٌ أَصْـلاَ لِلْمَمْنُـوعِ مِـنَ الصَّرفِ فِي حَالَةِ الرَّفعِ.	تَحَوَّلَ الضَّمُّ إِلَى التَّنْوِينِ الـدَّالِّ عَلَـى التَّـنْكِيرِ؛ لِيَتَنَاسَـبَ مَـعَ حَاضِـرِ (القَوَاعِدِ) اللَوَاتِي أَصْبَحْنَ نَكِرَةً غَـيرَ مَعْرُوفَـةٍ بَعْـدَ الـدَّمَارِ. فَكَمَـا أَنَّ (القَوَاعِـدَ) فقـدَتْ صِـفَاتِهَا الثُّبُوتِيَّـةَ وَصَـارَتْ أَثَـرَاً بَعْـدَ عَـينٍ، كَـذَلِكَ تَحَوَّلَـتْ حَرَكَـةُ الضَّـمِّ إِلَـى تَنْـوِينِ التَّنْكِيرِ (الـمبْنَى)؛ لِلْإِشَارَةِ إِلَـى تِلْـكَ الـمدُنِ (الـمعْنَى).

فَاسْأَلْ بَلَنْـسِيَّةً مَـا شَـأنُ مُرْسِـيَّةٍ وَأَيْـنَ شَـاطِـبَةٌ أَمْ أَيْـنَ جَـيَّانُ
وَأَيْـنَ قُرْطُبَـةٌ دَارُ العُلُـومِ، فَكَـمْ مِـنْ عَالـم قَـدْ سَمَا فِيهَا لَـهُ شَـانُ
وَمَـاشِيَاً مَرِحَـاً يُلْهِـيهِ مَوطِنُـهُ أَبْعْدَ حِمْصٍ تَعُـزُّ الـمرْءَ أَوطَـانُ

الشَّوَاهِدُ فِـي هَـذِهِ الأَبْيَـاتِ الثَّلاَثَـةِ هِـيَ: (بَلَنْسِـيَّة، مُرْسِـيَّة، شَـاطِبَة، قُرْطُبَـة، حِمْص)، وَهِيَ أَسْمَاءٌ مَمْنُوعَةٌ مِنَ الصَّـرْفِ، لَكِـنَّ الشَّـاعِرَ عَامَلَهـا مُعَامَلَـةَ الأَسْـمَاءِ الـمصْرُوفَةِ، فَأَلْحَقَهَا تَنْوِينَاً فِـي آخِرِهَـا. وَيُمكِنُنَـا أَنْ نَلْمَـحَ مِـنَ التَّنْـوِينِ الإِشَـارَاتِ التَّالِيَةَ:

- إِقَامَة الوَزْن العَرُوضِيّ.
- جَذْب الانْتِبَاهِ.
- إِطْلاَق العَنانِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الانْفِعَالاَتِ النَّفْسِيَّةِ: إِنَّ الـمتَمَعِّنَ فِي تِلْكَ الأَسْـمَاءِ الـمصْرُوفَةِ يَجِدُهَا صِيغَتْ فِي سِيَاقِ جُمْلَةٍ إِنْشَائِيَّةٍ طَلَبِيَّةٍ، وَالشُّـعَرَاءُ فِـي دَيْـدَنِهِمْ

أَمْيَلُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الجُمْلَةِ الإنشائيَّةِ الطَّلَبِيَّةِ؛ لِمَا فيها من طاقةٍ انفعاليَّةٍ وقوَّةِ طَلَبٍ، واستثارةٍ للانتباهِ، وتحريكٍ للمشاعِرِ، فإنْ كانت ثمَّةَ حواجزُ وقفتْ أمَامَ الشَّاعِرِ لتَحُدَّ مِنِ انْفِعَالاَتِهِ، سَعَى إِلَى تَذْلِيلِهَا وَتَجَاوُزِهَا؛ حَتَّى لاَ تَكْبَحَ جِمَاحَهُ فِي إيصَالِ مُرَادِهِ.

وَلاَ جُنَاحَ عَلَى الشَّاعِرِ حِينَ صَرَفَ تِلْكَ الأَسْمَاءَ؛ لأنَّ دَلاَلَةَ لَفْظَةِ (الـمنْع) تُفْضِي إِلَى تَصْفِيدِ الشَّاعِرِ عِنْدَ التَّعْبِيرِ عَنِ انْفِعَالاَتِهِ فِي مَوْقِفٍ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ فِيهِ إِلَى الحُرِّيَّةِ فِي التَّعْبِيرِ، فَتَجَاوَزَ (المنْع) بِوسَاطَةِ صَرْفِ تِلْكَ الأَسْمَاءِ، وَلَنَا أَنْ نَقُولَ: إنَّ هَذِهِ المدُنَ كَانَتْ مُحَصَّنَةً مَنِيعَةً، وَالآنَ صَارَتْ بِلاَدَاً مَفْتُوحَةً تَتَقَبَّلُ دُخُولَ أَيِّ غَرِيبٍ، فَالحَالَةُ الأُوْلَى يُنَاسِبُهَا - إعْرَابِيًّا - المنْع مِنَ الصَّرْفِ، أَمَّا الحَالَة الثَّانِيَة فَيُنَاسِبُهَا التَّصْرِيفُ.

وَإِذَا مَا أَجْمَلْنَا دَلاَلاَتِ التَّنوينِ، فَإِنَّنَا نَخْلُصُ مِنْهَا إِلَى أنَّ الشَّاعِرَ أَرَادَ أَنْ يَجْذِبَ انْتِبَاهَ المرْءِ إِلَى حَجْمِ الدَّمَارِ وَالحَيفِ اللَّذَينِ غَشِيَا المدُنَ الأَنْدَلُسِيَّةَ، وَيُظْهِرَ شِدَّةَ حُزْنِهِ وَبُكَائِهِ الـممْشُوجِ بِالأَنِينِ عَلَى مَا حَلَّ بِهَا.

حَيثُ الـمساجِدُ قَدْ صَارَتْ فِيهِنَّ إِلا نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ

الشَّاهِدُ هُنَا كَلِمَة (نَوَاقِيس) الَّتِي جَاءَتْ عَلَى وَزْنِ صِيغَةِ مُنْتَهَى الجُمُوعِ (فَوَاعِيل)، وَاللاَفِتُ فِي هَذَا الشَّاهِدِ أنَّ صَرْفَهُ أوْ عَدَمَهُ لاَ يَكْسِرُ البَيتَ الشِّعْرِيَّ عَرُوضِيًّا، وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أنَّ الشَّاعِرَ قَصَدَ مِنْ صِرْفِهَا جَذْبَ الانْتِبَاهِ إِلَيهَا، وَمَا تُوحِيهِ مِنْ دَلاَلَةٍ دِينِيَّةٍ، وَيَتَبْلَورُ ذَلِكَ بِوسَاطَةِ الدَّلاَلَةِ الصَّوتِيَّةِ الـمشْتَرَكَةِ بَينَ التَّنْوِينِ وَالنَّوَاقِيسِ؛ فَتَرَدُّدُ صَوْتِ الغُنَّةِ فِي الأَنْفِ النَّاجمِ عَنِ التَّنوينِ، يُشْبِهُ الصَّوتَ النَّاجِمَ عَنْ قَرْعِ أَجْرَاسِ الكَنَائِسِ؛ إِيذَانًا بِحُلُولِ وَقْتِ الصَّلاَةِ، فَكَانَ المغْزَى مِنْ هَذَا كُلِّهِ الإِشَارَةَ إِلَى كَثْرَةِ النَّواقيسِ، وقِلَّةِ المآذِنِ الَّتِي كَانَتْ تَصْدَحُ بِصَوتِ الأَذَانِ، وَجُلُّ مَا ذَكَرَهُ الشَّاعِرُ جَاءَ اسْتِصْرَاخَاً وَاسْتِنْصَارًا، لَعَلَّهُ يَجِدُ أُذُنًا صَاغِيَةً وَبَصِيرَةً مُدَقِّقَةً لِمَا اجْتَرَحَهُ المحْتَلُّ مِنْ حُوبٍ كَبِيرٍ.

٢. تحريك السَّاكِنِ:

من دَيدَن اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ أَنَّهَا تَكْرَهُ تَوَالِي المتَمَاثِلاَتِ، فَإِذَا اجْتَمَعَ حَرْفَانِ سَاكِنَان، فَإِنَّ الحَرْفَ الأَوَّلَ يُحَرَّكُ وَيَبْقَى الثَّاني سَاكِنَاً. أَمَّا إِذَا جَنَحَ شَاعِرٌ إِلَى التَّحْرِيكِ دُونَ سَبَبٍ، فَإِنَّ هَذَا يُعَدُّ كَسْرَاً لِسُنَنِ النَّحْوِ المتَأَثِّرَةِ بِعِلْمِ الأَصْوَاتِ، وَقَدْ عَدَّهُ النَّحْوِيُّونَ ضَرُورَةً شِعْرِيَّةً قَسْرِيَّةً؛ بُغْيَةَ إِقَامَةِ الوَزْنِ الشِّعْرِيِّ.

تَجَلَّى هَذَا المظْهَرُ فِي قَصِيدَةِ الرُّنْدِيِّ فِي تَحْرِيكِ السَّاكِنِ لِحَرْفِ (المِيم) ضَمِيرِ جَمْعِ الذُّكُورِ (هُمْ)، إِذْ تَكَرَّرَ فِي سِتَّةِ مَوَاطِنَ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ الميلَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ جَاءَ وِفَاقَاً لِلْوَزْنِ الشِّعْرِيِّ تَارَةً، بَلْ كَانَ أَدْعَى إِلَى لَطِيفَةٍ بَلاَغِيَّةٍ يَقْصِدُهَا الشَّاعِرُ، يُمْكِنُ أَنْ تُسْتَقْرَأَ بِوسَاطَةِ وُرُودِهَا فِي الأَبْيَاتِ التَّالِيَةِ:

مَادَا التَّقَاطُعُ فِي الإِسْلامِ بَينَكُمُ ... وَأَنْتُمُ - يَاعِبَادَ اللهِ - إِخْوَانُ

يَا مَنْ لِذِلَّةِ قَومٍ بَعْدَ عِزِّهِمُ ... أَحَالَ حَالَهُمُ كُفْرٌ وَطُغْيَانُ

فَلَو تَرَاهُمْ حَيَارَى لا دَلِيلَ لَهُمْ ... عَلَيهُمُ مِنْ ثِيَابِ الذُّلِّ أَلْوَانُ

وَلَو رَأَيتَ بُكَاهُمْ عِنْدَ بَيعِهِمُ ... لَهَالَكَ الأمرُ وَاسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانُ

القَاسِمُ المشْتَرَكُ بَينَ هَذِهِ الأَبْيَاتِ تَحْرِيكُ (ميم) ضَمِيرِ الجَمْعِ (هُمْ) بِالضَّمِّ، وَالأَصْلُ أَنْ تَكُونَ (السُّكُون)، وَهَذَا التَّحَوُّل مِنَ المأْلُوفِ إِلى غَيرِ المأْلُوفِ قَصَدَ مِنْهُ الشَّاعِرُ جَذْبَ الانْتِبَاهِ لِمَا آلَ إِلَيهِ جَمْعُ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ - عَبْرَ مَدِّ الصَّوْتِ بِالضَّمَّةِ - إِذْ بَاتَتِ الذِّلَّةُ وَالمسْكَنَةُ وَصْمَاً لَهُمْ بَعْدَ العِزَّةِ وَالرِّفْعَةِ، وَالاخْتِلاَفُ بَعْدَ الائْتِلاَفِ، وَالبُكَاءُ بَعَدَ السُّرورِ وَالمكَاءِ، وَالتَّرَحُ بَعْدَ الفَرَحِ.

فَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يُنَادِي جَمْعَ المسْلِمِينَ كَافَّةً - بِوسَاطَةِ ضَمِيرِ الجَمْعِ المتَحَرِّكِ بِالضَّمِّ - وَيَحُضُّهُمْ عَلَى التَّحَرُّكِ (إِطَالَة الصَّوت بِالضَّمَّةِ) وَلَيسَ الرُّكُون (السُّكُون)، فَعَلَيهِمْ أَنْ يَنْتَضُوا السُّيُوفَ فَيَتَقَلَّدُوهَا، وَيَتَنَكَّبُوا الأَقْوَاسَ، وَيُجَهِّزُوا فِي أَيدِيهِمُ

السِّهَامَ؛ اسْتِجَابَةً إِلَى الـمتَغَيِّرِ الجَدِيدِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى الأَنْدَلُسِ، بَدَلاً مِنَ الرُّكُـونِ إِلَـى الطُّمَأْنِينَةِ، كَمَا يَدْعُوهُمُ إِلَى نَبْذِ التَّفْرِقَةِ وَوَأْدِهَا.

● **حَرَكَةُ الضَّـمَائِرِ:**

احْتَوَتِ القَصِيدَةُ عَلَى عَدَدٍ غَيرِ قَلِيلٍ مِنَ الضَّمَائِرِ، إِذْ بَلَغَتْ عِدَّةُ الضَّمَائِرِ فِـي القَصِيدَةِ تِسْعَةً وَخَمْسِينَ ضَمِيرَاً، كَانَ لِضَمِيرِ الغَيبَـةِ عَلَـى اخْـتِلاَفِ أَنْمَاطِـهِ حُضُـورٌ بَارِزٌ، وَمِمَّا يَسْتَرْعِي النَّظَرَ ازْدِحَامُ البَيتِ الوَاحِدِ غَالِبَاً بِأَكْثَرَ مِنْ ضَمِيرٍ، وَهَذَا يُعدُّ أَدَاةً مِنْ أَدَوَاتِ التَّشْكِيلِ الصِّيَاغِيِّ فِي بِنَاءِ القَصِيدَةِ، وَرَابِطَاً لِتَحْقِيقِ الانْسِجَامِ فِي خِطَابِهَا، وَمُؤَثِّراً فِي دَلاَلاَتِهَا الشِّعْرِيَّةِ.

نَوْع الضَّمِير / حَالُهُ	الـمتَكَلِّم		الغَائِب		الـمخَاطَب		الـمجْمُوع
	الـمفْرَد	الجَمْع	الـمفْرَد	الجَمْع	الـمفْرَد	الجَمْع	
مُتَّصِل	–	١	٢٨	١٧	٤	٢	٥٢
مُنْفَصِل	–	–	٤	٢	–	١	٧
الـمجْمُوع	–	١	٣٢	١٩	٤	٣	٥٩

نَلْحَظُ مِنْ مُعْطَيَاتِ الجَدْوَلِ الحَقَائِقَ التَّالِيَةَ:

١- اقْتَصَرَتْ الضَمَائِرُ عَلَى صُورَتَينِ: الغَيبَة وَالـمخَاطَب سِوَى فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَرَدَ فِيهَا اسْتِعْمَالُ الضَّمِيرِ الـمتَّصِلِ (نا) الدَّالِّ عَلَى الـمتَكَلِّم، وَرُبَّمَـا يَفِـيْءُ غِيَـابُ الضَمَائِرِ الدَّالَّةِ عَلَى الـمتَكَلِّمِ (أَنَا، نَحْـنُ، نَـا، ي) إِلَـى أَنَّ الشَّـاعِرَ وَغَيْـرَهُ مِـنَ الأَنْدَلُسِيِّينَ لاَ يَقْوُونَ عَلَى الحَدِيثِ؛ لأَنَّهُمْ مَكْلُومُونَ، وَيَعِيشُونَ تَحْتَ نِيرِ القَتْـلِ وَالاحْتِلاَلِ، وَمُنْشَغِلُونَ بِالدِّفَاعِ عَنْ أَرْضِهِمْ.

٢- اسْتِعْمَال الضَمِيرِ الدَّالِّ عَلَى الغَيبَةِ وَاحِداً وَخَمْسِـينَ مَـرَّةً إِلَـى جَانِـبِ الضَّـمِيرِ الدَّالِّ عَلَى الـمخَاطَبِ الَّذِي وَرَدَ سَبْعِ مَرَّاتٍ؛ دَعْوةً إِلى الالْتِحَامِ وَالاتِّحَادِ بِحَمْلِ

الهَمِّ الجَمَاعِيِّ، وَتَصْوِيراً لِـحَجْمِ الـمعَانَاةِ الَّتِي اعتورَتِ الأندلُسَ.

٣- اسْتِعْمَال الضَمِيرِ الدَّالِّ عَلَى الغَيبَةِ بِكَثْرَةٍ، ودَلاَلَـةُ ذَلِـكَ تَغْيِيـبُ أَهْـلِ الأَنْـدَلُسِ جَمِيعِهِمْ، وَعَدَمُ إِبْرَازِ وُجُودِهِمْ بَعْدَ الاحْتِلاَل، إِذْ صَارَتْ أَرْضُ الأَنْـدَلُسِ كِفَاتـاً لَهُمْ، فَهُمْ إِمَّا قَتْلَى أَوْ أَسْرَى أَوْ جَرْحَى، وَمَنْ تَبَقَّى مِنْهُمْ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ فَيَعِـيشُ مَسْلُوبَ الحُرِّيَّةِ.

٤- كَثْرَة اسْتِعْمَال الضَّمَائِر الدَّالَّةِ عَلَى الـمفْرَدِ حِينَاً (٣٢ مَرَّةً)، وَالجَمْـعِ حِينَـاً آخَـرَ (١٩ مَرَّةً)، وَالتَّنَاوُب فِي اسْـتِعْمَال هَـذَين الضَّـمِيرين يَشِـي بِحَـالَتَين؛ الأُوْلَـى: الفَرْدِيَّة وَالأَنَانِيَّة، وَهِيَ صِفَة طَارِئَة تَدُلُّ عَلَى التَّحَوُّل فِي سُلُوكِ أَهْـلِ الـمغْرِبِ، الثَّانِيَة: الجَمَاعَة (صِفَة ثَابِتَة) الَّتِي كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهَا أَهْلُ الأَنْدَلُسِ.

٤. الظَّوَاهِر العَرُوضِيَّة:

أ. الحَذْفُ فِي الضَّرَبِ:

أَرَادَ الشَّاعِرُ أَنْ تَكُونَ نُونِيَّتُهُ - بِمَا تَحْوِيهِ مِنْ حِكَمٍ وتِصْوِيرٍ لِحَيْثِيَّاتِ الاحْتِلاَل - أُنْشُودَةً وَاعِظَةً يُرددُهَا النَّاسُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَهَذَا مَـا حَصَـلَ؛ لأَنَّ الشَّـاعِرَ يَصِفُ مُعَانَاةً وَفَجِيعَةً أَلَـمَّتَا بِهِ، فَتَفَاعَلَ مَعَ الحَدَثِ، وَتَعَمَّقَ مَـعَ مَوْضُـوعِهِ الأَسَـاسِ، فَانْعَكَسَتْ مَشَاعِرُهُ وَأَحَاسِيسُهُ عَلَى قَصِيدَتِهِ.

مِنَ الظَّوَاهِرِ اللاَفِتَةِ لِلنَّظَرِ فِي القَصِيدَةِ ظَاهِرةُ (عِلَّةِ الحَذْفِ) الَّتِي تَوَسَّمَتْ بِهَـا جَمِيعُ أَضْرُبِ القَصِيدَةِ، فَارْتَأَى الشَّاعِرُ أَنْ يَلْتَزِمَ - كَمَا هُو مَعْروفٌ فِي عِلْمِ العَرُوضِ - بِتَفْعِيلَةٍ وَاحِدَةٍ لِلضَّرَبِ فِي صُورَةِ (- -)، وَهِيَ الصُّورَةُ الفَرْعِيَّةُ "فَاعِلْ" لِلصُّـورَةِ الرَّئِيسِيَّةِ "فَاعِلُنْ"، وَتُسَمَّى هَذِهِ العِلَّةُ فِي عُرْفِ العَرُوضِيِّينَ عِلَّةَ القَطْعِ.

هذا الحذفُ في الجانبِ العَروضيِّ جاءَ في آخرِ عجُزِ البيتِ (الضَّرب)، ولم يـأتِ البتَّةَ في صدرِ البيتِ (العَروض)، إلا في أوَّلِ بيتٍ الَّذِي لِغَايَـةِ التَّصْـرِيعِ، وَقَـدْ يَكُـونُ

لِهَذَا الأَمْرِ دَلاَلَةٌ مُرْتَبِطَةٌ بِالحَادِثَةِ الَّتِي يَتَنَاوَلَهَا الشَّاعِرُ، وَيَكُونُ دَلِكَ بِالتَّفْسِيرِ التَّالِي: أنَّ الشَّاعِرَ حَوَّلَ تَفْعِيلَةَ (فَاعِلُنْ) - وَهِيَ الصُّورَةُ الرَّئِيسِيَّةُ - إِلَى الصُّورَةِ الفَرْعِيَّةِ (فَاعِل)؛ لِيَرْبِطَهُ مَعَ التَّحَوُّلِ فِي الأَنْدَلُسِ الَّتِي تَغَيَّرَ عَيْشُهَا وَازْدِهَارُهَا وَسُكُونُهَا - الحَالَة الطَّبِيعِيَّة لَهَا - إِلَى نَهْبٍ وَسَلْبٍ - الصُّورَة الثَّانويَّة - وهِيَ نِهَايةٌ آلَ إِلَيهَا بَلَدُهُ.

وَالتَّفْسِيرُ الآخرُ أنّ الشّاعِرَ أَبْقَى عَلَى الصُّورَةِ الرَّئِيسَةِ لِتِلْكَ التَّفْعِيلَةِ فِي صُدُورِ الأَبْيَاتِ وَغَيْرِهَا فِي أَعْجَازِهَا؛ لأنّ ثَبَاتَ الحَالَةِ الأَنْدَلُسِيّةِ كَانَ الأَسَاسَ فِي جُزْئِهَا الأَوَّل، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الحَالَةُ فِي القِسْمِ الآخَرِ مِنْ حَيَاتِهَا إِلَى الاحْتِلاَلِ وَالتَّبَدُّل، وَهَذَا يُنَاسِبُهُ التّغَيُّرُ فِي التّفعِيلَةِ الرَّئِيسَةِ (الأَوَّل) فِي صُدُورِ الأَبْيَاتِ إِلَى التَّفْعِيلَةِ الفَرعيّةِ فِي (الآخَر) فِي أَعْجَازِهَا.

ب. جمالُ القافيةِ:

إنَّ القَصِيدَةَ عَلَى الرَّغمِ مِنْ غَرَضِهَا (الرِّثاء)، وَمَا رَافَقَهَا مِنْ نَفْسِيَّةٍ مُتَحَسِّرةٍ مُتَفَجِّعَةٍ إِلَّا أنَّ الشَّاعِرَ أَضْفَى عَلَيهَا ضُرُوباً مِنْ جَمَالِيَّاتِ القَصِيدةِ، ويتمثَّلُ دَلِكَ بِـ:

- القَافِيَةِ الـمُطْلَقَةِ الـمرْدَفَةِ: وَهِيَ القَافِيَةُ المنْتَهِيَةُ بِمُتَحَرِّكٍ يَسْبِقُهَا حَرْفُ لِينٍ (الأَلِف)، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ القَوَافِي يَعُدُّهُ العَرُوضِيُّونَ مِنْ أَعْلَى القَوَافِي مُوسِيقِيَّةً وَجَمَالاً، فَجَمِيعُ ضُرُوبِ القَصِيدَةِ تَنْتَهِي بِـ (انُ)، وَهَذَا لَمْ يَأْتِ اعْتِبَاطاً عِنْدَ الشَّاعِرِ، بَلْ يُظْهِرُ مَدَى قُدْرَتِهِ الفَنِّيَّةِ، وَتَمَكُّنِهِ مِنْ نَاصِيَةِ اللُّغَةِ، فَأَسْبَغَ بِدَلِكَ عَلَى قَوَافِيهِ دِقَّةً مُوسِيقِيَّةً. وَمَجِيْءُ القَافِيَةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ أَتَاحَ لِلشَّاعِرِ أنْ يَمُدَّ صَوْتَه، وَفِيَ هَذَا الأَمْرِ تَظْهَرُ قِيمَتَانِ صَوْتِيَّتَانِ مُضَافَتَانِ؛ الأُوْلَى: أنَّ الشَّاعِرَ أَرَادَ أَنْ يَرْتَدَّ صَدَى صَوَتِهِ فِي أَرْجَاءِ الـمعْمُورَةِ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى تَفَجُّعِهِ وَأَلَمِهِ، الثَّانِيَة: الدَّلاَلَةُ عَلَى أَنِينِ الشَّاعِرِ وَتَأَوُّهِهِ مِمَّا اعْتَرَاهُ مِنْ حَسْرَةٍ وَحُزْنٍ.
- أنّ حَرْفَ النُّونِ (الرَّوي) حَرْفٌ صَامِتٌ مَخْرَجُهُ أَسْنَانِيٌّ لَثَوِيٌّ أَنْفِيٌّ، وَصِفَتُهُ أَنَّهُ

مَائِعٌ (مُتَوسِّط: صَوت دُونَ انْفِجَارٍ أَو احْتِكَاكٍ عِنْـدَ الــمخْرَجِ)، مَجْهُـورٌ، شَـدِيدُ الحَسَاسِيَّةِ، وَصِفَتَا الجَهْرِ وَالحَسَاسِيَّةِ تُنَاسِبَانِ الحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ لِلشَّاعِرِ، فَالجَهْرُ يَتَمَثَّـلُ بِمُجَاهَرَةِ الشَّاعِرِ لِمُصِيبَتِهِ، وَالحَسَاسِيَّة تَتَنَاسَبُ وَرِقّةَ حَالِ الشَّاعِرِ.

- تَتَكَوَّنُ القَافِيَةُ فِي أَغْلَبِهَا مِنْ أَسْمَاءٍ، وَالأَسْمَاءُ بِـدَلاَلَتِهَا عَلَـى الثَّبَـاتِ تُشِـيرُ إِلَـى الهَاجِسِ الَّذي يؤرِّقُ الشَّاعرَ، والصِّفةِ الَّتي يَبْحَثُ عَنْهَا، فَمَـا لَـمْ يَسْـتَطِعْ تَحْقِيقَـهُ لِبَلَدِهِ - أَثْنَاءَ الحَـرْبِ - بَثَّـهُ فِـي شِـعْرِهِ، فَخَرَجَـتْ تَعْـبِيرَاً لِمَـا فِـي دَاخِلِـهِ، لِـذَا فَالاسْتِقْرَارُ الَّذِي لَمْ يَعُدْ مُتَاحَاً وَلاَ مُتَمَتِّعَاً بِصُحْبَتِهِ جَسَّدَهُ فِي قَافِيَةِ أَبْيَاتِهِ.

ج. التَّدرُّجُ الإيقاعيُّ:

بَدَأ الشَّاعِرُ أَبْيَاتَهُ السِّتَّةَ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ بِإِيْقَاعٍ مُرْتَفِعٍ مُتَصَاعِدٍ، وَمَرْجِعُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الأَبْيَاتَ تَضَمَّنَتْ حِكَمَاً بَلِيغَةً جَاءَتْ نَتَاجَ تَجْرِبَةٍ عَمِيقَةٍ وَاقِعِيَّةٍ، وَلاَ بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الحِكَمُ مَمْشُوجَةً بِفَيضٍ مِنَ الـمشَاعِرِ؛ لأَنَّهَـا جَسَّـدَتْ مَرْحَلَـةً دَامِيَـةً مِـنْ مَرَاحِلِ عُمُرِ الشَّاعِرِ، وَهِيَ مَرْحَلَةُ الاحْتِلاَلِ وَالاضْطِهَادِ.

أَمَّا الأَبْيَاتُ (٧ - ١٣) فَفِيهَا تَقَهْقُرٌ لانْفِعَالاَتِ الشَّاعِرِ؛ لأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ فِيهَا عَـنْ أَقْوَامٍ بَائِدَةٍ لَـمْ تَعُدْ لَهَا بَاقِيَةٌ، وَمَضَوا فَكَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا. فَالشَّاعِرُ يُفْضِـي بِوسَـاطَةِ هَـذِهِ الأَبْيَاتِ إِلَى حَقِيقَةِ الـموْتِ الَّذِي مَهْمَا فَرَّ الإِنْسَانُ مِنْهُ، فَإِنَّهُ مُلاَقِيهِ، وَمَصِيرُ الإِنْسَـانِ أَنْ يُجَدِّدَ عَهْدَاً بِأَصْلِهِ الـمَجْبُولِ مِنْـهُ[٣٥]. يَبْـدُو أَنَّ الشَّـاعِرَ شَـاءَ أَنْ يَـرْبِطَ فِـي هَـذِهِ الأَبْيَاتِ بَينَ مَوْتِ الأَقْوَامِ وَانْفِعَالاَتِـهِ العَاطِفِيَّـةِ، فَهُمَـا يَشْـتَرِكَانِ فِـي صِـفَةِ الانْحِنَـاءِ وَالنُّكُوصِ، فَكَمَا أَنَّ الإِنْسَانَ يَعُودُ إِلَى سِيرَتِهِ الأُولَى (الـتُّرَاب)، كَذَلِكَ خَبَتْ مَشَاعِرُ الشَّاعِرِ، وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ بِوسَاطَةِ نُكُوصِ إِيقَاعِهِ الموسِيقِي مِنْ حَيْثُ بَدَأَ.

وَلَمَّا بَدَأَ الشَّاعِرُ مُوَطِّئَاً الحَدِيثَ عَنِ الأَنْدَلُسِ وَمَا حَلَّ بِهَا - وَهُوَ مَا يَشْغَلُ بَالَهُ - عَادَتْ عَاطِفَةُ الحُزْنِ تَتَصَاعَدُ شَيْئَاً فَشَـيْئَاً، وَبَـدَأَتِ الــمشَاعِرُ تَتَفَجَّـرُ مِنْهَـا الأَسَـى وَالأَلـم، وَهَذَا مَا يُوَضِّحُهُ بِجَلاَءٍ الأَبْيَاتِ (١٤ - ١٨).

وَبَعْدَ أَنْ جَاشَتْ عَوَاطِفُ الشَّاعِرِ وَخَرَجَتْ عَنْ أَطْوارِهَا وَاسْتَبَدَّتْ بِهِ تَمَالَكَهَا، عَادَتْ مِنْ جَدِيدٍ انْفِعَالاتُه إِلَى الخُبُوتِ وَالانْـخِفَاضِ تَدْرِيـجِيًّا، وَكَأَنَّ الشَـاعِرَ مُـدْرِكٌ مَعْنَى الصَّبْرِ فِي الـمُصِيبَاتِ كَمَا يَقُولُ أَبو دَهْبَل الجُمَحِيُّ:

قُلْ لابْنِ قَيْسٍ أَخِي الرُّقَيَّاتِ مَا أَحْسَنَ العِرْفَ فِي الـمصِيبَاتِ[٣٦] (المنسَرِح)

وَقَدْ مَثّلَتِ الأَبْيَاتُ (١٩-٢٢) الانْخِفَاضَ فِي وَتِيرَةِ انْفِعَـال الشَّـاعِرِ، وَهَـذَا الانْخِفَاضُ الإِيقَاعِيُّ لَرُبَمَّا يَفِيْءُ إِلَى أَنَّ الشَّاعِرَ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ يَبْكِي عَلَـى الـمدُنِ الأَنْدَلُسِيَّةِ، وَالبُكَاءُ - كَمَا هُوَ مَعْلُـوْم - مُتَنَفَّسٌ لِلْإِنْسَانِ يُخفِّفُ مِنْ وَطْأَةِ الـمُصِيبَةِ، لِذَلِكَ نَـجِدُ ابْنَ الرُّومِيِّ - بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهِ - لَمْ يُرِدْ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنِ الحُزْنِ، بَلْ يَـدْعُو عَينَيهِ أَنْ تَبْخَلاَ بِالدَّمْعِ حَتَّى يَعِيشَ حُزْنُهُ العَمِيقَ الدَّائِمَ بِسَبَبِ وَفَاةِ زَوْجَتِهِ؛ فَقَالَ:[٣٧]

عَـــيْنَيَّ شُـــحَّا وَلاَ تَسُـــحَّا جَـــلَّ مُصَـــابِي عَـــنِ البُكَـــاءِ
تَرْكُكُمَـــا الـــدَّاءَ مُسْـــتَكِنًّا أَصْـــدَقُ عَـــنْ صِـــحَّةِ الوَفَـــاءِ
إِنَّ الأَسَـــى وَالبُكَـــاءَ قِدْمَـــا أَمْـــرَان كَالـــدَّاءِ وَالـــدَّوَاءِ
وَمَـــا ابْتِغَـــاءُ الـــدَّوَاءِ إِلَّـــا بُغْيَا سَبِيلٍ إِلَى البَقَاءِ (مُخَلَّع البَسِيط)

لاَ رَيبَ فِي أَنَّ الإِنْسَانَ الـمسْلِمَ حِينَ يَتَعَرَّضُ دِينُـهُ إِلَـى تَشْـوِيهٍ وَتَحْـوِيرٍ، أَوْ تُـمَسُّ مَعَالِمُهُ الـمقدَّسَةُ بِمَكْرُوهٍ، فَإِنَّ هَذَا الخَطْبَ يُثِيرُ حَفِيظَتَهُ وَاسْتِهْجَانَهُ، وَهَذَا مَـا عَاشَهُ الشَّاعِرُ وَاقِعَـاً، إِذْ تَحَوَّلَـتِ الـمسَاجِدُ فِـي الأَنْـدَلُسِ إِلَـى كَنَـائِسَ تُـدَقُّ فِيهَـا النَّواقِيسُ، وَتُرْفَعُ فِيهَا الصُّلْبَانُ، فَدَابَتْ مُهْجَةُ قَلْبِهِ حُزْنًا وَكَمَدًا، وَتَبَلَّلَتْ جُفُونُـهُ مِـنَ الاسْتِعْبَارِ، وَتَحَفَّزَتْ مَشَاعِرُهُ الـمَكْلُومَةُ، وَزَادَتْ أَنْفَاسُهُ شَهِيقًا وَزَفِيرًا، وَهَـذَا نَحِـدُهُ فِي الأَبْيَاتِ (٢٣ - ٢٦).

أَمَّا البَيتُ السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ، فَفِيهِ تَصْوِيرٌ لِحَجْمِ الـمُصَابِ الجَلَلِ الَّـذِي عَـرَكَ الأَنْدَلُسَ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِـهَا، فَأَنْسَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الـمصَائِبِ، وَتَصَدَّرَ قَائِمَةَ الكَوَارثِ

الإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي لاَ نِسْيَانَ لَهَا حَتَّى مَعَ طُولِ الأَزْمَانِ، وَهَـذَا مَـا صَـوَّرَهُ ارْتِفَـاعُ انْفِعَالِـهِ العَاطِفِيِّ فِي البَيْتِ.

وَفِي الأَبْيَاتِ (٢٨ – آخِرِ القَصِيدَةِ) بِاسْتِثْنَاءِ البَيتِ السَّادِسِ وَالـثَّلاَثِينَ، فَفِيهَا انْخِفَاضٌ فِي الإِيقَاعِ مِنَ الأَعْلَى إِلَى الأَسْفَلِ.

وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ رَسَمَ لَنَا صُورَةَ التَّحوُّلِ فِي الأَنْدَلُسِ بَينَ الـماضِي وَالحَاضِرِ عَبْـرَ التَّدرُّجِ الإِيقَاعِيِّ لِلْقَصِيدَةِ، فَبَدَأَتِ القَصِيدَةُ بِنَفَسٍ عَالٍ، وَوَتِيرَةٍ مُرْتَفِعَةٍ (يُمَثِّلُ مَاضِـي الأَنْدَلُس)، ثُمَّ انْتَهَتْ بِانْخِفَاضٍ (حَاضِرِهَا).

أَمَّا البَيتُ السَّادِسُ وَالثَّلاثُونَ فَهُوَ (بيت القَصِيد)؛ لأَنَّهُ أَشْـعَلَ زِنَـادَ القَصِـيدَةِ، وَوَصَلَ بِالإِيقَـاعِ إِلَى ذُرْوَةِ هَرَمِهِ؛ لأَنَّ الشَّاعِرَ رَبَطَ فِيهِ بَينَ الـماضِي (الـمحَبَّب إِلَيهِ) وَالحَاضِرِ (الـمكْرُوهِ)، فَيَصِفُ أَهْلَ الأَنْدَلُسِ بِأَنَّهُمْ غَرِيبُونَ وَافِـدُونَ حَتَّـى وَهُـمْ فِـي دِيَارِهِمْ، فَبَعْدَ أَنْ كَانُوا مُلُوكـاً صَـارُوا عُبْـدَانَاً لَـدَى الــمحْتَلِّ، وَفِـي هَـذِهِ الــمقَابَلَةِ التَّصْوِيرِيَّةِ دَورٌ مُؤَثِّرٌ فِي حَرَكَةِ الـمعْنَى، إِذْ يَنْتَقِلُ القَارِئُ عَلَى نَحْوٍ سَرِيعٍ إِلَى صُـورَةٍ مُخْتَصَرَةٍ تُوَضِّحُ حَالَ الأَنْدَلُسِ بَـينَ مُتَنَاقِضَـين، وَهَـذَا مَـا حَـدَا بِالشَّـاعِرِ أَنْ يَحْشُـدَ الـمُتَضَادَّاتِ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى اضْطِرَابِ نَفْسِيَّتِهِ، وَتَوَهُّجِ عَاطِفَتِهِ.

وَالرَّسْمُ البَيَانِيَّ الـمُدْرَجُ أَدْنَاهُ اسْـتِجْلاَءٌ لِلتَّـدَرُّجِ الإِيقَـاعِيِّ لِأَبْيَـاتِ القَصِـيدَةِ، الَّذِي يُظْهِرُ الصُّعُودَ وَالهُبُوطَ فِي سُلَّمِ إِيقَاعِ انْفِعَالاَتِ الشَّـاعِرِ مَـعَ الحَـدَثِ، بِوسَـاطَةِ تَفْعِيلاَتِ بَحْرِ البَسِيطِ الرَّئِيسَةِ وَالفَرْعِيَّةِ:

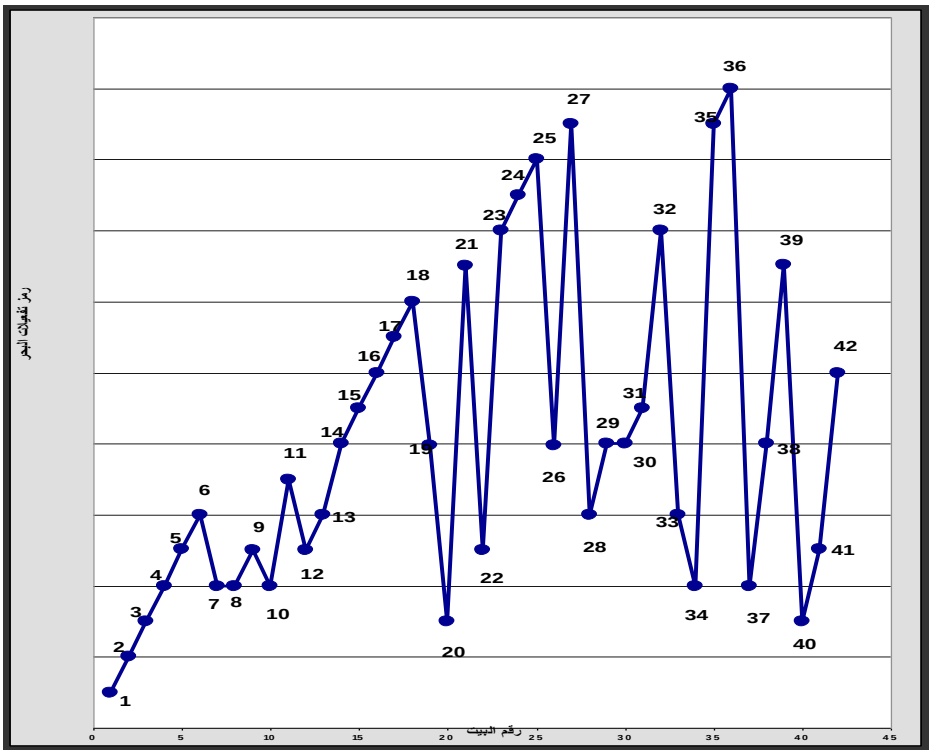
رقم البيت
0
5
10
15
20
25
30
35
40
45
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42

الخَاتِمَة

لَقَدْ دَرَعَ البَاحِثُ القَصِيدَةَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَتَرَسَّمَهَا؛ لِتَلَمُّسِ العَلاَقَةِ الحَمِيمَةِ بَينَ المَعْنَى وَالمَبْنَى، فالمعْنَى رُوحُ الشِّعْرِ، وَاللُّغَةُ مِرْآةُ الشَّاعِرِ، وَهَمْزَةُ الوَصْلِ بَينَهُ وَبَينَ المتَلَقِّي، وَقد تَبَدَّى لَنَا مِنْ شَكْلِ العَلاَقَةِ بَينَهُمَا في القَصِيدَةِ أنَّ المعْنَى (انْقِلاَب حَال الأَنْدَلُس) كَانَ لَهُ إسْقَاطَاتٌ عَلى لُغَةِ القَصِيدَةِ وَبِنَائِهَا، ذَلِكَ أنَّ الشَّاعِرَ عَبَّرَ عَن المعْنَى لُغَةً وَبِنَاءً بِكُلِّ مَا فِيهِ دَلاَلَةٌ عَلَى التَّحَوُّلِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

١- الأَلْفَاظ الدَّالَّة عَلَى التَّحَوُّل مِنْ حَالٍ إِلَى حَال، سَوَاءٌ أَكَانَ الاسْتِعْمَالُ لَفْظَاً وَاحِدَاً أَوْ لَفْظَتَين (الطِّبَاق)، فَعَلَى صَعِيدِ اللَفْظِ الوَاحِدِ، اسْتَعْمَلَ الشَّاعِرُ - في الغَالِبِ - أَفْعَالاً، نَحو: انْهَدَّ، يَذُوبُ، صَارَ، هَوَى... ، أَمَّا عَلَى صَعِيد (الطِّبَاق) فَكَانَتِ الغَلَبَةُ لِلْأَسْمَاءِ، الَّتِي تُوحِي بِاجْتِمَاعِهَا إِلَى إقَامَةِ الضِّدِّيَّةِ.

٢- الجمْلَة الإِنْشَائِيَّة الطَّلَبِيَّة: لِأَنَّ الشَّاعِرَ أرَادَ اسْتِعْمَالَ تَعْبِيرَاتٍ غَيرِ مَأْلُوفَةٍ لِتَنْسَجِمَ مَعَ الحَدَثِ الجَلَلِ غَيرِ المأْلُوفِ؛ فَقَدْ زَاغَ إِلَى اسْتِعْمَال الجُمْلَةِ الإنشَائِيَّةِ الطَّلَبِيَّةِ، الَّتِي أَتَاحَتْ لَهُ تَدَخُّلَ نَفْسِيَّتِهِ فِي لُغَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ عِنْدَ التَّعْبِيرِ عَنِ انْفِعَالاَتِهِ الطَّافِحَةِ بِالأَسَى حَسْبَ التَّغَيُّرَاتِ الَّتِي اعْتَوَرَت الأَنْدَلُسَ.

٣- المجَاز العَقْلِيّ الَّذِي تِيحُ لِلْمُتَلَقِّي تَخَيُّلَ العَلاَقَةِ بَينَ المعْنَى الأَصْلِي وَالمجَازِي، وَالبَحْثَ عَنْ لَطَائِفِ الأَفْكَارِ وَدَقَائِقِ المعَاني، فَالتَّحَوُّلُ الَّذِي ضَرَبَ أَكْنَافَ الأَنْدَلُسِ لَهُ مَسِيسُ حَاجَةٍ إلى شَكْلٍ آخَرَ مِنْ أَشْكَالِ التَّحَوُّلِ فِي نَمَطِيَّةِ اسْتِعْمَالِ الفِعْلِ مَعَ فَاعِلِهِ.

٤- إِيجَاز الحَذْف الَّذِي تَطَلَّبَتْهُ رِسَالَةُ الشَّاعِرِ، ذَلِكَ أَنَّهُ أَرَادَ السُّرْعَةَ فِي إيصَالِهَا بِوَقْتٍ أَقْصَرَ، لِيُومِئ إِلَينَا أَنَّ التَّحَوُّلَ فِي الأَنْدَلُسِ، تَطَلَّبَ أَيْضَاً التَّحَوُّلَ فِي تَرْكِيبِ الجُمَلِ فِي اللُّغَةِ، مَعَ مُرَاعَاةِ الفَارِقِ بَيْنَهُمَا، ذَلِكَ أَنَّ التَّحَوُّلَ فِي الأَنْدَلُسِ - فِي

نَظَرِ الشَّاعِرِ - غَيرُ مَأْلُوفٍ أوْ مُبَاحٍ، لَكِنَّ التَّحَوُّلَ فِي اللُغَةِ - فِي نَظَرِ النَّحْـوِيِّينَ وَالبَلاَغِيِّينَ - مَأْلُوفٌ وَمُبَاحٌ، وَلَكِنْ يَجْمَعُهُمَا قَاسِمٌ مُشْتَرَكٌ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ حَالَةُ (التَّحَوُّل).

٥- التَّقْدِيم وَالتَّأْخِير الَّذِي يَقُومُ عَلَى كَسْرِ العَلاَقَةِ الـمأْلُوفَةِ بَينَ الـمسْنَدِ وَالـمسْنَدِ إِلَيهِ (العُدُول فِـي التَّرْكِيـبِ)، فَيُتِـيحُ لِلشَّـاعِرِ التَّعْـبِيرَ عَـنْ مَقْصُـودِهِ الـمعْنَوِيِّ بِمَنْطُوقِهِ اللَفْظِيِّ (التَّقْدِيم وَالتَّأْخِير)، فَالحَالَةُ الطَّبِيعِيَّةُ الأُوْلَى لِلْأَنْدَلُس (الـمعْنَى) وَيُقَابِلُهُ الأَصْل فِي تَرْكِيبِ الجُمْلَة (الـمبْنَى)، تَغَيَّر وَصَارَ مَعْكُوسَاً، فَمَا كَانَ أَصْلاً (اسْتِقْرَار الأَنْدَلُس) صَارَ فَرْعَاً (احْتِلاَلَهَا)، وَهَكَذَا فِي تَرْكِيبِ الجُمْلَـةِ، فَمَـا كَـانَ حَقُّهُ الصَّدَارَةُ بَاتَ آخِرَاً.

٦- الخُرُوج عَنِ القَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ، فَيَبْدُو أَنَّ الشَاعِرَ أَرَادَ التَّحَـرُّرَ مِـنْ إِحْـرَامِ القُيُـودِ الـمعْيَارِيَّةِ، وَالتَّمَتُّعَ بِالأَلْفَاظِ وَالتَّرَاكِيبِ وَالأَسَالِيبِ الَّتِي يَرَاهَا مُعَبِّرَةً عَـنْ نَفْسِـهِ، فَالحَالُ الَّذِي تَعِيشُهُ الأَنْدَلُسُ لاَ يَنْتَظِرُ الـمعْيَارِيَّةَ وَالــمثَالِيَّةَ اللُغَوِيَّـةَ؛ لأَنَّ الحَـالَ الآنَ اسْتِثْنَائِيٌّ، وَيَنْبَغِي التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِكُلِّ مَا تَحْتَمِلُهُ اللُغَةُ، وَبِمَا يَرْغَبُ الشَّاعِرُ قَوْلَهُ عَنْهُ.

ولأنَّ الـمعْنَى فِي بَطْنِ الشَّاعِرِ، فَإِنَّ هَذَا البَحْثَ يَبْقَـى دِرَاسَـةً اجْتِهَادِيَّـةً ظَنِّيَّـةَ التَّأْوِيلِ؛ لأَنَّ العَمَلَ الشِّعْرِيَّ لَهُ وَجْهَان: فَنِّيّ وَجَمَالِيّ، فَـالجُزْء الفَنّـيّ يَتَمَثَّـلُ بِـالنَّصِّ الشِّعْرِيّ، أَمَّا الجَمَالِيّ فَمُتَعَلِّقٌ بِـالقِرَاءَاتِ الــمتَتَالِيَةِ، وَاسْـتِنْطَاق الغِيَـابِ، وَمُحَـاوَرَةِ الـمَسْكُوتِ، وَمَلءِ الفَرَاغِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِـ (النَّصِّ الـمُطْلَق)؛ أَي النّص الَّذِي تَتَعَدَّدُ فِيهِ القِرَاءَاتُ، فَيَتَعَامَلُ كُلُّ قَارِئٍ مَعَهُ بِقَدْرِ الفَهْمِ والثَقَافَةِ، مُسْتَعِينَاً بِتَجَارِبِـهِ الخَاصَّـةِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مِسَاحَةٌ لِلاجْتِهَادِ فِي قِرَاءَةِ الشِّعْرِ، لَمَا وَجَـدْنَا كُتُـبَ التُّـرَاثِ تَزْخَـرُ بِأَمْثِلَةٍ عَلَى التَّطْبِيقِ العَمَلِيِّ لِمَفْهُـومِ (التَّأْويـلِ)، وَنَسْـتَوْقِفُنَا فِـي هَـذَا الــمقَامِ قَولَـةُ الفَرَزْدَق: "عَلَى مَا يَسُوؤُكَ وَيَنُوؤُكَ، عَلَينَا أَنْ نَقُـولَ وَعَلَـيكُمْ أَنْ تَـحْتَجُّوا"[٣٨] حِينَمَـا سُئِلَ يَوْمَاً عَنْ سَبَبِ رَفْعِهِ لَفْظَةَ (مُجَلَّف) فِي بَيتِهِ الشِّعْرِيّ الـمشْهُورِ.

الهَوَامِش والتعليقات:

- نَفْحِ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ، الـمَقَّرِي، أَحْـمَد بْن مُـحَمَّد التِّلِمْسَانِيّ، ج٤/ ٤٨٧-٤٨٨الدِّيوَان في أعْمَالِهِ الأدَبِيَّة الشِّعْر وَالنَّثْر، الرُّنْدِيّ، أَبو الطَّيب، صَالح بن شَرِيف، ص٢٣٢-٢٣٥.
- حِينَ يَتَحَدَّثُ أَيُّ شَاعِرٍ عَنْ نَائِبَةٍ أَوْ يَرْثِي شَيْئًا غَالِيًا أَوْ مُحَبَّبًا إليهِ، فَإِنَّهُ يُعَبِّرُ تَعْبِيرًا صَـادِقًا حَقِيقِيًّـاً عَنْ مَكْنُونِهِ، لِذَلِكَ يَقُولُ الشّاعِرُ التشِيكِيّ (مَاشَا): "الألـم هُوَ أُمُّ الشِّعْرِ"، وَقَدِيمًا قِيـلَ لإِعْرَابِـيٍّ: مَـا بَالُ الـمرَاثِي أَجْوَدُ أَشْعَارِكُمْ؟ فَرَدَّ: لأَنَّنَا نَقُولُهَا وَأَكْبَادُنَا تَحْتَرِقُ، وَقَالَ أَرِسْطُو طَالِيس: "وَالحَقُّ أَنَّ أَقْدَرَ النَّاسِ تَعْبِيرًا عَنِ الشَّقَاءِ مَنْ كَانَ الشَّقَاءُ فِي نَفْسِهِ". انظُر الاقْتِبَاسَاتِ فِي الكُتُـبِ التَّالِيَـةِ عَلَـى التَّوَالِي: قَضَايَا الشِّعْرِيَّة، رومان يَاكْبسون، ص١٥. البَيَان وَالتَّبْيين، الـجَاحِظ، أَبو عُثْمَان عَمْرُو بْن بَحْر (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، ٢/ ٣٢٠. فَنّ الشِّعْر، أَرِسْطُو طَالِيس، ص٤٨.
- آفَاق الشِّعْرِ العَرَبِيِّ فِي العَصْرِ الـمَمْلُوكِيّ، يَاسِين الأَيُّوبِيّ ص١٧٦.
- انْظُرْ: دِرَاسَات أَنْدَلُسِيَّة فِي الأَدَبِ وَالتَّارِيخِ وَالفَلْسَفَة، الطَّاهِر أَحْمَد مَكِّي، ص٣٢١.
- مَرْجِعٌ سَابِقٌ، نَفْح الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ، ج٤/ ٤٨٨.
- سَقْط الزَّنْد، أَبو العَلَاء الـمَعَرِّي، ص١٩٦.
- لا بُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ – احْتِرَازًا – إلى أَنَّهُ ليسَ مِنْ وُكْدِ البحْث الغَوْصُ في العَلاقةِ الجدَليَّةِ بين اللَفظِ وَالمعْنى وَالتَّفصيلُ فِيها: حَتَّى لَا يَسْلُكَ طَرِيقاً مُفْضِياً إلى الوُلُوج في تَفْصِيلَاتٍ تُخْرِجُهُ عَنْ جَادَّة الطَّريق، إنما غَايَة البحْث – باخْتِصَارٍ – الرَّبط بَين المعْنى الشِّعْري (المقَام) وَاللُّغَة (المقَال) في قَصيدَة رِثاء الأنْدَلُس، واسْتِكْشَافُ التَّأَثُّرِ وَالتَّأْثِيرِ بَيْنَهُمَا مِنْ مُنْطَلَقٍ أُسْلُوبِيٍّ. فَـالمعنى الَّذي يَرُومُه البَحْث هو التَّحَوُّل الَّذِي انْتابَ الأنْدَلُسَ (الثُّنائِيّة الضِّدِّيَّة)، أَمَّا المبنى، فَالمقْصُود به اللُّجُوء إلى اسْتِعمال أُسْلُوب (كَسْر المتَوَقَّع/ التَّحوُّل) في لُغَة القَصِيدَةِ، وللتَّوضِيحِ أَكْثَر، انْظُر الحَاشِيَةَ دَاتَ الرَّقَمِ (٢٢).
- سُورَة الكَهْف، آيَة (١٨).
- انْظُرْ: صَفْوَة التَّفَاسِير، مُحَمَّـد عَلِي الصَّابُونِيّ، ٢/ ١٨٥.
- انظر: مُعْجَم البُلْدَان، يَاقُوت الحَمَوِيّ، ٢/ ٣٥٩.

- عَبْد الله الغَدَّامِي، الخَطِيئَة وَالتَّكْفِير، ص.
- الـمبْسُوط، السَّرَخْسِيُّ، شَمْس الدِّين أَبُو بَكْر (ت٤٨٣هـ)، ١٢/ ٧٩.
- الـمعْجَم الوَسِيط، مَـجْمَع اللُّغَة العَرَبِيَّة فِي القَاهِرَة، بَاب الدَّال مَادَّة (دَوَل) ١/ ٣٠٤.
- لِسَان العَرَب، الـمِصْرِيّ، ابْن مَنْظُور، مَادَّة (دَوَرَ) ٤/ ٢٩٥ – ٢٩٧.
- الـمعْجَم الوَسِيط، بَاب الهَاء، مَادَّة (هَوَى) ٢/ ١٠٠١.
- السَّابِق نَفْسُه، باب الهاء، مَادَّة (هدَّ) ٢/ ٩٧٦.
- السَّابِق نَفْسُه، باب الخاء، مَادَّة (خَلَا) ١/ ٢٥٤
- السَّابِق نَفْسُه، باب الحاء، مَادَّة (حَالَ) ١/ ٢٠٨.
- سُورَة الحَاقَّة، الآيَة (٢٧).
- الإِيْضَاح فِي عُلُوم البَلَاغَة، الخَطِيب القَزْوِينِي، ص١٦.
- ظَاهِرَة الحذْفِ فِي الدَّرس اللُّغَوِيِّ، طَاهِر سُلَيمان حَمُّودَة، ص٤.
- دَلَائِل الإِعْجَاز، عَبْد القَاهِر الجُرْجَانِيّ، ص١١٢.
- مِنَ الأَمْثِلَة عَلَى الرَّبْطِ بَينَ المعْنَى وَالمبْنَى فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ تَعَاقُبُ الفِعْلَينِ (اسْطَاع، اسْتَطَاع) مَرَّتَينِ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾، بِحَذْفِ حَرْفَ التَّاءِ مِنَ اللَّاصِقَةِ السَّابِقَةِ (اسْت) فِي الفِعْلِ الأَوَّل، وَإِثْبَاتِهَا فِي الفِعْلِ الثَّانِي، وَحِينَ بَادَهَتِ العُلَمَاءَ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ، لَمْ يَزِدْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ – فِي تَعْلِيلِهِ – عَلَى قَوْلِهِمْ: إِنَّهَا لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ لِلتَّخْفِيفِ فِي الاسْتِعْمَال، وَهَيَ عِلَّةٌ يَكْثُرُ الجُنُوحُ إِلَيهَا كُلَّمَا تَوَافَرَ شَاهِدٌ عَلَى مِثْلِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الحَذْفِ، لَكِنَّ بَعْضَهُمْ حَاوَلَ تَأَمُّلَ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ، وَرَبْطَهَا بِالسِّيَاقِ الوَارِدَةِ فِيهِ وَغَرَضِهِ، إِذْ رَأَوا أَنَّ الاسْتِعْمَالَ القُرْآنِيّ يَقْتَطِعُ مِنَ مَبْنَى الفِعْلِ حِينَ يَرْغَبُ فِي التَّدْلِيلِ عَلَى الاقْتِطَاعِ مِنَ الحَدَثِ، أَوْ يَحْذِفُ مِنْهُ فِي مَقَامِ الإِيجَازِ وَالاخْتِصَارِ بِخِلَافِ مَقَامِ الإِطَالَةِ وَالتَّفْصِيلِ، بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ يَظْهَرُ تَعْلِيلُ سَبَبِ الحذفِ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الصُّعُودُ إِلَى السَدِّ – الَّذِي صَنَعَهُ ذُو القَرْنَينِ مِنْ زُبُرِ الحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ الـمذَابِ – أَيْسَرَ مِنْ إِحْدَاثِ نُقْبٍ فِيهِ، اسْتُعْمِلَ الفِعْلُ الأَخَفُّ بِنْيَةً – أَيْ

بِحَذْفِ التَّاءِ - وَلَمَا كَانَ الحَدِيثُ عَنِ الأَمْرِ الشَّاقِّ، اسْتُعْمِلَ الفِعْلُ ذُو البِنَاءِ الأَطْوَلِ. انْظُرْ: البُرْهَان فِي تَوْجِيهِ مُتَشَابِهِ القُرْآن، مَحْمُود بْن حَمْزَةَ الكَرْمَانِيّ، ص١٧١. بَلَاغَة الكَلِمَة فِي التَّعْبِيرِ القُرْآنِيّ السَّامِرَّائِيّ، فَاضِل السَّامِرَّائِي، ص٩-١٠.

- سُورَة سَبَأ، آيَة (١١).
- سُورَة يُوسُف، الآيَة (١٢).
- البِنَى الأُسْلُوبِيَّة فِي النَّصِّ الشِّعْرِيّ دِرَاسَة تَطْبِيقِيَّة، رَاشِد بن هَاشِل الحسينِيّ، ص٢٣٣.
- عَدَّ ابنُ جِنِّي التَّقدِيمَ وَالتَّأخِيرَ مَظْهَراً مِنْ مَظَاهِرِ شَجَاعَةِ العَرَبِيَّةِ، إِذْ عَقَدَ لَهُ بَاباً خَاصًّا فِي كِتَابِهِ "الخَصَائِص". انْظُرْ: الخَصَائِص، ابْن جِنِّي، أَبُو الفَتْح عُثْمَان، ج٢/ ٣٦٠-٤٤١.
- أُصُول تَحْلِيل الخِطَاب فِي النَّظَرِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، مُحَمَّد الشَّاوِش، ١/ ٥٢٦.
- دَلَائِلُ الإِعْجَاز ص١٠٦ (مَرْجِع سَابِق).
- وَمِن الأَدِلَّة الَّتِي تُشِيرُ إِلى هَذَا المَعْنَى:

• الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ أَنَس بْن مَالِكٍ: "كَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاقَةٌ تُسَمَّى الْعَضْبَاءَ لَا تُسْبَقُ، قَالَ حُمَيْد: أَوْ لَا تَكَادُ تُسْبَقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ فَسَبَقَهَا فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الـمسْلِمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ، فَقَالَ: حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ". انظُرْ: البُخَارِيّ، أَبو عَبْد الله مُـحَمَّد بن إِسْمَاعِيل، صَحِيح البُخَارِيّ ص٧٠٩، كِتَاب الجِهَاد وَالسِّيَر، بَاب نَاقَة النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، رَقَم الحَدِيث (٢٨٧٢).

• قَول الإِمَام عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ:

إِذَا تَمّ أَمْرٌ بَدَا نَقْصُهُ تَوَقَّعْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمْ (الـمتَقَارَب)

انظر: دِيوَان عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب، علي ابْن أَبِـي طَالِب، ص١٣٨.

- دِيوَان العِمَاد الأَصْفَهَانيّ، العِمَاد الأَصْفَهَانِيّ، مُـحَمَّد بْن مُـحَمَّد، ص٢٣٠.
- الكِتَاب، سِيبَوَيهِ، عَمْرو بْن عُثْمَان، ١/ ٣٤.
- انْظُرْ: الحَذْف وَالتَّقْدِيم وَالتَّأْخِير فِي دِيوَان النَّابِغَة الذُّبْيَانِيّ دِرَاسة دَلَالِيَّة تَطْبِيقِيَّة مَعْنَوِيَّة، ابْتِسَام حَمْدَان، ص ٥٢.
- ظَاهِرَة العُدُول فِـي شِعْر الـمُتَنَبِّـي، مُصْطَفَى عَبْد الـهَادِي عَبْد الله، ص٩-١٠.

- هَذَا المعْنَى يُذَكِّرُنا بِقَولِ إيليَّا أَبو مَاضِي:

أَنْتَ لِلْأَرْضِ أَوّلاً وَأَخِيـرَاً كُنْتَ ملْكَاً أَوْ كُنْتَ عَبْدَاً ذَلِيلَاً (الخَفِيف)

انظر: إِيليا أَبو مَاضِي: شَاعِر الـمَهْجَر الأَكْبَر، شِعْر وَدِرَاسَة، أَبو مَاضِي، إيليا، ٣/ ٦٠٥.

- دِيوَان أَبي دَهْبَل الـجُمَحِيّ، الجُمَحِيّ، أَبو دَهْبَل، ص٥٠.

- دِيوَان ابْن الرُّومِي، ابْن الرُّومِيّ، أَبو الحَسَن عَلِيّ بْن العَبَّاس بْن جريح، ١/ ٧٥.

- الشِّعْر وَالشُّعَرَاء، الدّينَوَرِيّ، ابْن قُتَيْبَة عَبْد الله بْن مُسْلِم، ص٨٩.

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِع

- القُرْآن الكَرِيـم.
- الأَيّوبِيّ، يَاسِين، آفَاق الشِّعْرِ العَرَبِيِّ فِي العَصْرِ الـمَمْلُوكِيّ، لُبْنَان، ١٩٩٥.
- البُخَارِيّ، أَبو عَبْد الله مُـحَمَّد بن إِسْمَاعِيل، صَحِيح البُخَارِيّ، كِتَاب الجِهَاد وَالسِّيَر، بَـاب نَاقَـة النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، رَقَم الحَدِيث (٢٨٧٢)، ط١، دَار ابْن كَثِير، دِمَشْق، ٢٠٠٢.
- الجَاحِظ، أَبو عُثْمَان عَمْرُو بْن بَحْر (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، البَيَـان وَالتَّبْـيين، تَحْقِيـق: عَبْـد السَّـلَام هَارُون، ط٤، دَار الفِكْر، بَيْرُوت.
- الجُرْجَانِيّ، عَبْد القَاهِر، دَلَائِل الإِعْجَاز، تَعْلِيـق: مَحْمُـود مُحَمَّـد شَـاكِر، ط٢، مَكْتَبَـة الخَـانجِي، القَاهِرَة، ١٩٨٩.
- الجُمَحِيّ، أَبو دَهْبَل، دِيوَان أَبي دَهْبَل الـجُمَحِيّ، تحقيق: عَبْد العَظِيم عَبْد المـحْسِن، ط١، مَطْبَعَة القَضَاء، العراق، ١٩٧٢.
- ابْن جِنِّي، أَبو الفَتْح عُثْمَان، الخَصَائِص، تَـحْقِيق: مُـحَمَّد عَلِي النَّجَّار، دَار الكُتُـب الـمِصْرِيَّة – الـمكْتَبَة العِلْمِيَّة، القَاهِرَة.
- الحسينِيّ، رَاشِد بـن هَاشِـل، البِنَـى الأُسْـلُوبِيَّة فِـي الـنَّصِّ الشِّـعْرِيّ، دِرَاسَـة تَطْبِيقِيَّـة، ط١، دَار الحِكْمَة، لندن، ٢٠٠٤.
- حَمْدَان، ابْتِسَام، الـحَذْف وَالتَّقْدِيم وَالتَّأْخِير فِي دِيوَان النَّابِغَة الـذُّبْيَانِيّ، دِرَاسـة دَلَالِيَّـة تَطْبِيقِيَّـة مَعْنَوِيَّة، ط١، دَار طلَاس لِلدِّرَاسَاتِ وَالتَّرْجَمَةِ وَالنَّشْرِ، دِمَشْق، ١٩٩٢.
- حَمُّودَة، طَاهِر سُلَيمان، ظَـاهِرَة الحـذْفِ فِي الـدَّرس اللُغَـوِيِّ، الـدَّار الجَامِعِيَّـة للطِّبَاعـةِ وَالنَّشـرِ وَالتَّوزِيعِ، الإسكندَرِيَّة، ١٩٩٨.
- الحَمَوِيّ، يَاقُوت، مُعْجَم البُلْدَان، دَار صَادِر، بَيرُوت، ١٩٧٧.
- الدِّينَوَرِيّ، ابْن قُتَيْبَة عَبْد الله بْن مُسْلِم، الشِّعْر وَالشُّعَرَاء، تَـحْقِيق: أَحْمَد مُحمَّد شَاكِر، ط٣، ١٩٧٧.

- الرُّنْدِيّ، أَبُو الطَّيب، صَالح بن شَرِيف، الدِّيوَان في أعْمَالِهِ الأدَبِيَّـة الشِّـعْر وَالنَّثْـر، جَمْـع: حَيَـاة قَارة، ط١، دَار الوَفَاء، الإسْكَنْدَرِيَّة، ٢٠١٠.
- ابْن الرُّومِيّ، أَبُو الحَسَن عَلِيّ بْن العَبَّاس بْن جرىج، دِيوَان ابْن الرُّومِي، شَرْح وَتَحْقِيـق: عَبْـد الأَمِير عَلِي مهَنَّا، ط١، دَار مَكْتَبَة الهِلَال، بَيرُوت، ١٩٩١.
- السَّامِرّائِيّ، فَاضِل، بَلَاغَة الكَلِمَة فِي التَّعْبِيرِ القُرْآنِيّ، ط١، بَغْدَاد، ٢٠٠٦.
- السَّرَخْسِيُّ، شَمْس الدِّين أَبُو بَكْر (ت٤٨٢هـ)، الـمبْسُوط، دَار الـمعْرِفَة، بَيرُوت.
- سِيبَوَيهِ، عَمْرو بْن عُثْمَان، الكِتَاب، تَحْقِيق: عَبْد السَّلَام هَارُون، ط٣، مَكْتَبَة الخَـانْجِي، القَـاهِرَة، ١٩٨٨.
- الشَّاوِش، مُحَمَّد، أُصُول تَحْلِيل الخِطَاب فِي النَّظَرِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ العَرَبِيَّـةِ، ط١، الـمؤَسَّسَة العَرَبِيَّـة للتَّوْزِيعِ، تُونُس، ٢٠٠١.
- الصَّابُونِيّ، مُحَمَّـد عَلِي، صَفْوَة التَّفَاسِير، ط٤، دَار القُرْآن الكَرِيم، بَيرُوت، ١٩٨١.
- ابْن أَبِـي طَالِب، عَلِيّ، دِيوَان عَلِيّ بْن أَبِـي طَالِب، جَـمْع: عَبْـد الـرَّحْمن المصـطَاوِيّ، ط٣، دَار الـمَعْرِفَة، بَيْرُوت – لُبْنَان، ٢٠٠٥.
- طَالِيس، أَرُسْطُو، فَنّ الشِّعْر، تَرْجَمَة وَتَحْقِيق: عَبْد الرَّحْمَن بَدَوِي، دَار الثَّقَافَة، بَيْرُوت.
- الطَّبَرِيّ، مُـحَمَّد بْن جَرِير (ت ٣١٠ هـ)، جَامِع البَيَان عَنْ تَأْوِيلِ آي القُرْآن، دَار الجِيل، بَيْرُوت.
- عَبْد الله، مُصْطَفَى عَبْـد الـهَادِي، ظَـاهِرَة العُـدُول فـِي شِـعْر الـمُتَنَبِّـي، الـمَجْمُوعَة العَرَبِيَّـة للتَّدْرِيبِ وَالنَّشْرِ، ط١، القَاهِرَة – مِصْر، ٢٠١٠.
- العِمَاد الأَصْفَهَانِيّ، مُـحَمَّد بْن مُـحَمَّد، دِيـوَان العِمَـاد الأَصْـفَهَانيّ، جـَمْع وتَـحْقِيق: نَـاظِم رَشِيد، كُلِّيَّة الآدَاب – جَامِعَة الموصِل، ١٩٨٣.
- الغَذَّامِي، عَبْد الله، الخَطِيئَة وَالتَّكْفِير، ط٦، الـمرْكِز الثَّقَافِي العَرَبِيّ، بَيرُوت، ٢٠٠٦.
- الـقَـزْوِيـنِـي، الخَطِيب، الإِيْضَاح فِي عُلُوم البَلَاغَةِ، القَاهِرَة، مَكْـتَـبَة مُحَـمَّد عَلِي صبيح، ١٣٩٠هـ.

- الكَرْمَانِيّ، مَحْمُود بْن حَمْزَةَ، البُرْهَان فِي تَوْجِيهِ مُتَشَابِهِ القُرْآن، تَحْقِيق: عَبْد القَادِر أَحْمَد عَطَا، دَار الفَضِيلَة، القَاهِرَة، ١٩٧٧.
- أَبو مَاضِي، إيليا، إيليا أَبو مَاضِي: شَاعِر المَهْجَر الأَكْبَر، شِعْر وَدِرَاسَة، حَرَّرَهُ وَقَدَّمَهُ: زُهَير مِيرزَا، ط٢، دَار اليَقَظَة العَرَبِيَّة لِلتَّأْلِيف وَالتَّرْجَمَة وَالنَّشْر، بَيْروت – لُبْنَان، ١٩٦٣.
- مَجْمَع اللُّغَة العَرَبِيَّة فِي القَاهِرَة، المعْجَم الوَسِيط، دَار الأَمْوَاج، لُبْنَان – بَيرُوت، ١٩٩٠.
- المِصْرِيّ، ابْن مَنْظُور، لِسَان العَرَب، دَار صَادِر، بَيرُوت.
- المَعَرِّي، أَبو العَلَاء أَحْمَد بن عَبْد الله التَّنوخِيّ، سَقْط الزِّنْد، شَرَحَهُ: أَحْمَد شَمْس الدِّين، ط١، دَار الكُتُب العِلْمِيَّة، بَيْرُوت – لُبْنَان، ١٩٩٠.
- المَقَّرِي، أَحْمَد بْن مُحَمَّد التِّلِمْسَانِيّ، نَفْح الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ، تَحْقِيق إِحْسَان عَبَّاس، دَار صَادِر، بَيرُوت، ١٩٦٨.
- مَكِّي، الطَّاهِر أَحْمَد، دِرَاسَات أَنْدَلُسِيَّة فِي الأَدَبِ وَالتَّارِيخِ وَالفَلْسَفَة، ط٣، دَار المعَارِف، القَاهِرَة، ١٩٨٧.
- يَاكْبسون، رومَان، قَضَايَا الشِّعْرِيَّة، تَرْجَمَة: مُحَمَّد الولي ومبارَك حنوز، دَار توبقال للنَّشْر، المَغْرِب، ١٩٨٨.